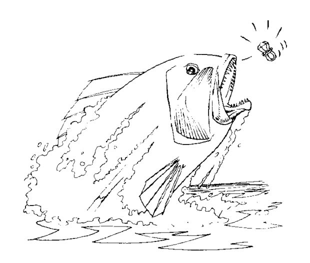


الخاتَم السِّحريّ

الدكتور نبيل راغب





الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

إشراف : الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد

١٠ (أ) شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي ، الجيزة - مصر
يطلب من : شركة أبو الهول للنشر
٣ شارع شواربي بالقاهرة ت : ٣٩٣٥٦٠٨ ، ٣٩٢٠٦١٦
١٢٧ طريق الحرية (فؤاد سابقا) - الشلالات ، الإسكندرية ت : ٤٩٢٤٨٣٩

الطبعة الأولى ٢٠٠١

رقم الإيداع ٢٠٠٠/١٩٠٤٣
الترقيم الدولي ٩ - ٠٥٢٥ - ١٦ - ٩٧٧ ISBN

رسوم : يوسف راغب

طبع في دار نوبار للطباعة ، القاهرة

الخاتَم السِّحريّ

١

رَفَعَتِ السَّفينةُ الكبيرة أَشْرِعَتَها استِعْدادًا للرَّحيلِ ، في حين وقف الوالي وكلُّ أكابر الولاية يُلَوِّحونَ ، مِنْ وَقْفتهم على أطرافِ الشّاطئ في تأثُّرٍ شديدٍ ، لأبي صير العائد إلى بلده الإسكندرية ، والذي لم يَستطعْ مَنْعَ الدُّموعِ التي تدحرجَتْ على خدّيْه . أما رُبّانُ السَّفينةِ فقد انْهمَكَ في إصْدارِ أوامره للبحارة حتى تملأ الرياحُ الأشْرِعَةَ بأقصى قُوَّتِها ، كما لَوْ كان مُصِرًّا على تجنُّب جيشانِهِ العاطفيِّ .

تَهادت السفينةُ المشحونةُ بكلِّ خيراتِ الأرضِ والبحرِ ، وهي تبتعِدُ عن الشّاطئ رُويدًا رُويدًا ، حتى بدا الوالي وأكابرُ الولاية بقعًا معتمةً ، برغم الشَّمسِ الذَّهبيَّةِ السّاطِعةِ على أمواجِ البحرِ المتراقِصَةِ ، وقد وقفَ الرُّبّانُ أمام عجلة القيادةِ وإلى جواره جَلَسَ أبو صير عَلى مَقْعدٍ خَشَبيٍّ مُثَبَّتٍ في الصاري الذي يُطاوِلُ السّحابَ ، في حين انهمك البحارةُ في تَثْبيتِ الحبالِ التي تُوجِّهُ الشراعَ الكبيرَ ، ثم الشِّراعَيْن الصَّغيرين ، ورَبْط الصَّناديقِ

والحقائب إلى الأعمدةِ المعْدنيَّةِ حتّى لا تَنْقَلِبَ مع تَمايُلِ السَّفينةِ وَسْطَ هَبّاتِ الرّياح .

كان البحّارةُ سُعداءَ مُسْتَبْشرين بالطَّقْسِ المشْرِقِ الْمُنْعِشِ ؛ فَرَفَعَ البَحّار رَبيعٌ مُساعدُ الرُّبّانِ عَقيرتَه بالغناء ، وتَجاوبَ معه زُملاؤُه بأصواتِهم العميقةِ الخَشِنَةِ التي رَدَّدَ الأُفْقُ صَداها .

ارتسمتْ على وَجْهِ الرُّبّانِ خليفةَ ابتسامةٌ عريضةٌ سعيدةٌ وهو يقول لأبي صير :

« جَمَعَتْنا الأقدارُ ثلاثَ مراتٍ بطريقة أغربَ من الخيال . . المرة الأولى عندما أبْحرتُ بكَ أَنْت وصديقك أبي قير من الإسكندريَّة منذُ خمسةِ أعوام إلى عكّا . . وقد لا تعلم أنَّني تفاءلتُ بكَ كثيرًا لأنَّ والي عكّا اختارني بعد هذه الرحلة قائدًا بحريّا لسفنه في زمنِ الحرب ، ورُبّانًا لسفينتهِ الخاصة في زمن السِّلْم . . ثم التقيتُ بك للمرة الثانية في الظروفِ الصَّعْبةِ والرهيبةِ التي مَرَرْتَ بها وأنقذك اللهُ منها بمعجزة لطيبة قَلْبك . . وهأنذا أَلْتَقيك للمرة الثالثة في طريقِ عودتِكَ إلى الإسكندريَّة تَنْفيذًا لأمرِ الوالي حتّى يَطْمَئِنَّ على وُصولِكَ لبلدِكَ



سالِمًا . »

كانَ أبو صير على وَشْكِ تَجاذُبِ أَطْرافِ الحديثِ مع الرُّبّانِ خليفةَ ، إلا أنَّ البحّارةَ صاحوا ، في حينَ قفزَ اثنانِ منهم في الماءِ ، وأمْسَكا بكيسٍ كبيرٍ كانتِ الأمواجُ تتقاذَفُه ، إلى أنْ نجحا في إلصاقهِ بجدارِ السفينةِ ثم رَفَعوهُ بالحبالِ .

وعندما فَتحوهُ فوجئوا بجُثَّةِ أبي قير داخلَه ، فتبرَّموا لمنظرِ الجثَّةِ التي احترقَ مُعظَمُها ولم يتبقَّ منها سِوى الوجْهِ ،

وأوْشكوا على إلقائها مَرّةً أخرى في اليمِّ ، ولكنَّ أبا صير صاحَ بهم بلهجةٍ صارمةٍ :

« لا تُلْقوا بهِ في البحرِ .. سنأخذُهُ معنا إلى الإسكندريَّة !»

أَجابَهُ البَحّارُ ربيعٌ مساعدُ الرُّبّانِ في دهشةٍ واضِحة :

« الرِّحلةُ من عكّا إلى الإسكندريَّة تستغرقُ عشرينَ يومًا .. وسوفَ تفوحُ من الجثةِ روائحُ لن يحتملَها أحدٌ !»

« إنَّه زميلُ عمري ! والعَفَنُ لا يصيبُ الجُثَثَ المحتَرِقَةَ ، كما أنَّ الكيسَ سميكٌ



ومُحكَمُ الغَلْقِ . سأدْفِنهُ في الإسكندريَّة . »

تأمَّلَ ربيعٌ الجثةَ وتَساؤُلاتٌ كثيرةٌ تجتاحه لكنَّهُ قال :

« فِعْلاً . . الكيسُ مملوءٌ بالجيرِ الحيِّ الذي أطفأتْهُ مياهُ البحْرِ . »

« اربطوا الكيسَ بإحْكامٍ وضَعوهُ في القَمْرةِ السُّفْلى !»

أَسْرَعَ البَحّارةُ لتنفيذِ أَمْرِ أبي صير ، وهَبطوا بالكيسِ إلى داخِلِ القَمْرةِ ، في حينَ واصلَ الرُّبّانُ حديثَهُ الشَّجِيَّ مع ضَيْفِه الكبيرِ :

« وها هي ذي الأقدارُ تَجمعُ ثلاثَتَنا للمرَّةِ الثالثةِ والأخيرةِ . . وإنْ كانَ زميلُكَ أبو قير قد جاءَنا في هذا اللقاءِ جثةً مُحترِقةً في كيسٍ ! ولا أُخفي عليكَ فإنَّني في غايةِ الشَّوْقِ لمعرفةِ حكايتِكُما مُنْذُ البدايةِ . . وكما تَرى فإنَّ حياتَنا في البحرِ لا تعرفُ سِوى المللِ أو الخوفِ - المللِ عندما يكونُ البحرُ ساكِنًا وهادِئًا . . والخوفِ عندما يثورُ ويُزَمْجِرُ . والحمدُ للهِ . . أنا مُستَبْشِرٌ ومُتَفائِلٌ مِنْ وُجودِكَ معنا ؛ فلم أجدْ مَنْ هو في طيبتِكَ وحُبِّكَ

للخيرِ . . ومع ذلك لا يزالُ أمامَنا عِشرونَ يومًا ، ولَنْ نجدَ أمتعَ من حكايتِكَ مع أبي قير منذُ البدايةِ !»

أجالَ أَبو صير بَصَرَهُ في الزُّرْقَةِ اللانهائيَّةِ التي تُحيطُ بهم مِنْ كُلِّ جانبٍ ، وتكادُ تخترقُ خَطَّ الأفُقِ الذي يُحاصِرُها حيثما اتَّجهتِ السفينةُ ، وَسْطَ أَصْداءِ السُّكونِ ولَطَماتِ الأمواجِ ورذاذِها ، الذي يَتناثرُ في رِقَّةٍ مِنْ حينٍ لآخَرَ على مُقَدِّمَةِ السَّفينَةِ ، التي تواصِلُ شقَّهَا كالسِّكّينِ في الزُّبْدِ ، وقالَ :

« حِكايَتي مع أبي قير يَطولُ شرحُها !»

تركَ الرُّبّانُ خليفةُ الدفَّةَ لِمُساعِدِه رَبيع ، وجلسَ في مواجهةِ أبي صير في حينَ تحوَّل ربيعٌ إلى آذانٍ مُصْغِيَةٍ وَسْطَ ضَحِكاتِ الرُّبّانِ الْمُجلجِلَةِ :

« ونحنُ نريدُ شرحَها يَطُولُ حتّى يُغطِّيَ العشرينَ يومًا !»

« إنّها حكايةٌ مليئةٌ بالعِبَرِ . . لقد فُطِرْتُ على طبيعةٍ تَمنعُني تمامًا من مقاومةِ الشَّرِّ بالشَّرِّ . . كنتُ أُدركُ أنّ الشَّرَّ نارٌ لا بدَّ أنْ تُحرِقَ مَنْ يتلاعبُ بها في نهايةِ الأمْرِ .

وقَدْ بدأْتُ حياتي عامِلاً صغيرًا في حمّام قريب مِنْ فَنار الإسكندريَّةِ ، الشَّهير بأنَّهُ أحدُ عجائبِ الدُّنيا السَّبْع . وكنتُ أتفانى في عَملي دونَ انتظار أيَّةِ هِباتٍ من زَبائن الحمّام ، برغْم الأجْرِ الضَّئيلِ الذي كُنْتُ أَحْصُلُ عليهِ مِنْ صاحِبِ الحمّام ، الذي عُرِف بالعَجْرفَةِ والشّراسَةِ واللسانِ السّليطِ . . وكنتُ مؤمِنًا بأنَّني لنْ أحْصُلَ على أكبرَ مِنْ نَصيبي في هذهِ الحياةِ . . وتردَّدَ اسمي على أَلْسِنَةِ الْمُسْتحِمّينَ بكُلِّ الخيرِ والحبِّ . . ثم بدأتِ الهِباتُ تَنهالُ عليَّ منهم ، لكنَّ صاحِبَ الحمّام كانَ يَسْتولي عليها أوّلاً بأوّلٍ وإلا فمَصيري الطَّرْدُ والتَّشَرُّدُ ! وقَنِعْتُ بحَياتي لكنَّ دوامَ الحالِ من الْمُحالِ . لم يَحتَمِلِ الْمُسْتَحِمُّونَ عَجْرفَةَ الرجُلِ وشَراسَتَهُ ولسانَهُ الطَّويلَ ، وتَشاجَروا مَعَهُ ، في حينَ أعلنَ بعضُهم أنَّهم يتردَّدونَ على الحمَّام للفَوْز بخِدْمتي الرَّفيعةِ والرّاقيةِ لَهُم – عندئذٍ أَرْغى الرجلُ وأَزْبَدَ واسْتَشاطَ غَضَبًا وطَردني ، وقَطَعَ عَيْشي حتى يُثْبِتَ لهم أنَّهُ هو الكلُّ في الكُلِّ !»

تَوقَّفَ أبو صير لابْتلاعِ ريقِهِ ، فَعَلَّقَ الرُّبّانُ و وميضُ

الشَّوقِ في عَيْنَيْهِ :

« صَدَقَ مَنْ قال : إنَّ العَقْلَ زينَةٌ ! »

ثَبَّتَ ربيعٌ عَيْنَيْهِ على أفُقِ البَحْر أمامَه في حينَ أعارَ أذنَيْه تمامًا لأبي صير ، وهو يُواصِلُ حكايتَهُ التي بدأتْ بمفاجَآتٍ غير مُتوقَّعةٍ :

« تردَّدْتُ بعد ذلك على حمّاماتِ الإسكندريَّة مِنْ شَرْقِها إلى غربِها حتَّى بُحَيْرةِ إدْكُو - فلم يَقْبَلْني أحدُ أصحابِها للعملِ عنده برغم تاريخي المشرِّفِ . . واكْتَشَفْتُ أنَّ صاحِبَ حَمّام الفَنارِ قد أخبرهُمْ جميعًا بأنَّني سَطوْتُ على خِزانَتِه وسَرَقْتُ ما فيها . . ولرقَّةِ قلبِه اكْتَفى بطَرْدِي دونَ أنْ يُعذِّبَني أوْ يُودِعَني السِّجنَ . . عِنْدئذٍ أدركْتُ أنّ أبْوابَ الرِّزْقِ قد سُدَّتْ في وَجْهي ، ولا بُدَّ مِن البحثِ عنْ أبوابٍ أخْرى في مِهَنٍ أخرى .

« وكنتُ قَدْ أجَدْتُ في الحمّامِ مِهْنَةَ الْمُزَيِّنِ ، لكنَّ الرِّجالَ يَحرصونَ على إطالةِ شَعْرِهم ، ولذلك اقْتَصرتِ الحرفَةُ على التَّزْيينِ دونَ الحِلاقةِ ، في حينَ اكْتَفى كثيرونَ

بالاستحمام فحسبُ . ولم أكُنْ قادِرًا على فَتْحِ حَمّام ، فاكتَفَيْتُ بفَتْحِ دُكّانٍ للحِلاقةِ على ساحِلِ الخليجِ القريبِ من بُحيرة إدْكُو - فقد كانت الحِرفةَ الوحيدةَ المُتَبَقِّيَةَ لي . . وساعَدتْني قَناعتي على التَّغلُّبِ على أحاسيسِ النِّقْمةِ والحِقْدِ على النّاسِ . »

عَلَّق الرُّبّانُ بصوتٍ رَدَّدَ صَداهُ الأفقُ الساكنُ برغم حَفيفِ الرّيح :

« على طَريقةِ ‹‹ عصفورٌ في اليدِ خَيْرٌ من عَشَرةٍ على الشَّجرةِ ! ›› لكنَّنا لم نَصِلْ بَعْدُ إلى حكايةِ أبي قير معكَ . »

« تَصادفَ أَنْ كانَ دُكّاني للحِلاقةِ أمامَ دُكّانِه للصِّباغةِ . . وكانَ من عادتهِ إذا أَعْطاهُ أحدٌ قُماشًا لِيَصبغَهُ أنْ يأْخُذَ أجْرَهُ مُقَدَّمًا ، ثم يَبيعَ القُماشَ لِيُنْفِقَ ثمنَهُ ومعه الأجْرُ الذي أخذَهُ من صاحِبِهِ على أطايبِ الطَّعامِ التي كانَ يَعْشَقُها ولا يَشْبَعُ مِنْها أبدًا . لم تكنْ لشراهَتِه حدودٌ !

« ولَمَسْتُ شراهتَهُ هذه عندما كُنْتُ أَدْعوهُ في قَمْرتي لتناوُلِ الطَّعامِ في رحلتِكُما الأولى إلى عكّا . لكنْ ماذا

كانَ رَدُّ الزّبونِ المخدوعِ ؟

« إذا جاءَهُ ليأخذَ قُماشَه بعد صِباغتِه ، كان يُسَوِّفُ ويُؤَجِّلُ ميعادَ التَّسْليم أكثرَ مِنْ مَرَّةٍ ، وفي كُلِّ مرَّةٍ يأتي بحيلةٍ جديدةٍ للاعتذارِ والتَّنَصُّلِ مِنْ وَعْدِه . . فيَزْعُمُ يومًا أنَّ زوجتَهُ كانتْ طولَ الليلِ تُعاني آلامَ المخاضِ . . ويَزْعُمُ يومًا آخرَ أنَّ المولودَ ماتَ ، أَوْ أَنَّهُ أُصيبَ بحُمَّى مُعْدِيَةٍ مَنَعتْهُ من العَملِ ؛ فيَهربُ الزَّبونُ بجِلْدِه من خطرِ الإصابةِ بها .

« وكان إذا نَفِدَ صَبْرُ صاحِبِ القُماشِ ، وطلبَ منه أنْ يَرُدَّهُ إليه مصبوغًا أو غيرَ مصبوغٍ - يَعْمِدُ إلى آخرِ حيلةٍ عِنْدهُ للتَّخَلُّصِ منْه ؛ فَيدَّعي أنَّه أَخْلفَ مواعيدَه لخَجَلِه مِنْ أَنْ يُخْبِرَهُ بالحقيقةِ ، وهي أَنَّه بَعْدَ أَنْ صَبَغَ قُماشَهُ صِبْغَةً لا نظيرَ لها ، نشرَهُ على الحَبْلِ أَمامَ دُكّانه ، فسرقَهُ لِصٌّ خَبيثٌ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَشْعُرَ بذَلك ، وهُوَ مُسْتَعِدٌّ أَنْ يَدْفَعَ العِوَضَ إذا كانَ يَقْبلُهُ على نفسه . . وكانَ أكثرُ أَصْحابِ الأَقْمِشةِ المفقودَةِ يُصَدِّقونَهُ ويَنْخَدعونَ ببُكائه أمامَهم ، فَيَتْرُكونَ عِوَضَهُم على اللهِ . وكانَ بَعْضُهُم لا

يُصدِّقونَهُ ويَرْفعونَ أمْرَهُ إلى القاضي فيُصِرُّ أمامَهُ على ادِّعائه ويَحْلِفُ الأيْمانَ المُغَلَّظَةَ ، ويَظَلُّ يَبْكي ويَنْدُبُ حظَّهُ حتَّى يَرِقَّ لَهُ قَلْبُ القاضي ويُخْلِيَ سبيلَهُ !»

اندمَجَ الرُّبّانُ بكُلِّ جَوارِحِه في القصَّةِ قائلاً في شَوْقٍ :

« لكنَّ دوامَ الحالِ من المحالِ ، كما قُلتَ ، يا سَيِّدُ أبو صير !»

« فِعلاً . . صارَ مَضربَ الأمْثالِ في الكَذِبِ والمُماطَلةِ وأكْلِ أموالِ بالباطِلِ . . وامتنعَ أهلُ البَلْدةِ عنْ معاملتِهِ . . فصارَ بعد ذلكَ يَفتَحُ دُكَّانَهُ في الصَّباحِ ثم يَقْضي طيلةَ النَّهارِ في دُكّاني مُخْتَبِئًا مِن أصْحابِ الأقْمِشةِ الَّتي أخَذَها وباعَها .

« وكانَ مِن الطَّبيعيِّ أنْ تَضيقَ به سُبُلُ المَعيشةِ ؛ فظلَّ يُلِحُّ عَليَّ ويُغْريني بالسَّفَرِ مَعَهُ بَحثًا عن رزْقٍ واسعٍ بدلاً مِن الكَسادِ الَّذي يُعانيهِ في الإسكندريَّة ، والَّذي كنتُ أعانيهِ أنا شَخْصيّا لإصْرارِ الرِّجالِ على إطالةِ شَعْرِهِم والاكْتِفاءِ بالتَّزيُّنِ العابرِ الَّذي لم يُمَكِّنِّي من مُجرَّدِ الزَّواجِ

وتكوينِ أسْرةٍ .

« كانَ الدَّخْلُ يُساوي الْمُنصرفَ وأحيانًا يَقِلُّ عنه - فقَبِلْتُ السَّفَرَ مَعَهُ لعلَّني أعملُ في حمّاماتِ بلدٍ بعيدٍ ليسَ فيهِ مَنْ يُطاردُني أَوْ يَضْطَهدُني . ونظرًا لعدم ثِقتي بهِ طلبْتُ منهُ أَنْ نَقْرأَ الفاتِحَةَ مُتعاهِدَيْنِ على أنْ نكونَ شريكَيْنِ في السَّرّاءِ والضَّرّاءِ ، وكلّ ما نَرْبَحُهُ نُنفقُ منهُ ونَدَّخِرُ بعضَهُ لوقتِ الحاجةِ ، فقرأَ معي الفاتحةَ . . وقُمْنا بِبَيْعِ أثاثِ الدُكّانَيْنِ ثُمَّ توجَّهْنا إلى الميناءِ ؛ حيثُ وَجَدْنا سفينَةً كبيرةً تَهُمُّ بمُغادرَتِه ، وفيها مائةٌ وعِشْرونَ راكِبًا غيرُ البَحّارةِ والرُبّانِ . »

ضَحِكَ الرُبّانُ قائلاً في سَعادةٍ واضحةٍ :

« وكنتُ أنا ذلك الرُبّانَ ! لا أحدَ يَعرفُ كيفَ تعملُ المقاديرُ !»

تَجاوبَ أبو صير معهُ بضحكةٍ مُشابهةٍ ، وقالَ :

« وكانتْ مَقاديرَ سَعيدةً وإنْ لم تَبْدُ كذلكَ في أوّلِ الأمرِ ، لكنَّ العِبْرَةَ بِالخَواتيمِ ! وربَّما تذكُرُ، يا حضرةَ

الرُّبّانِ ، كرمَ أخلاقِكَ عندما قَبِلْتَ طَلبي على الفَوْرِ لأعملَ حلاقًا للرُّكّابِ . وحَملْتُ عُدَّتي وطاسَتي لأَحْلِقَ لِكُلِّ مَنْ يَرْغَبُ . . ولَمْ تَمْضِ ساعَةٌ حتَّى كنتُ قَدْ جَمعْتُ بِضْعَةَ دراهِمَ ، وشيئًا كثيرًا من الطَّعامِ - فرجَعْتُ إلى زَميلي أبي قير ، و وضَعْتُ أمامَهُ الطَّعامَ فهجمَ عليهِ كأنَّهُ السَّبُعُ الضَّاري ، ثم تناولَ طاسَتي وشَرِبَ كلَّ ما فيها مِنْ ماءٍ عَذْبٍ أَنْعَمَ بهِ عَلَيَّ الرُّكّابُ الَّذينَ حَلقْتُ لهمْ ، ثم تَجشَّأَ وتمدَّدَ في مَوْضِعِه ، وما لَبِثَ قليلاً حتّى راحَ في سُباتٍ عَميقٍ !»

« لكنَّكَ لمْ تَذْكُرْ لي في تلكَ الرِّحْلةِ شيئًا عن غِشِّهِ وكَذِبِهِ واحْتِيالِهِ ؛ بلْ وَصَفْتَهُ بأنَّهُ رَجُلٌ طيِّبُ القلبِ ورقيقُ الحالِ !»

« كنتُ أتمنّى أنْ تُصلحَ رِعايَتي ومَحَبَّتي لهُ مِنْ أخْلاقِه ، لكنَّ جَشَعَهُ وشَراهتَهُ وخداعَهُ وحِيَلَهُ لمْ تتوقَّفْ عِنْدَ حدٍّ ، بلْ زادَتْ برغْمِ كَرَمِ أخْلاقِكَ ودَعْوتِكَ المستمرَّةِ لتناوُلِ الطَّعامِ على مائدتِكَ . .

« كانَ يَمْلأُ بَطْنَهُ بكُلِّ أَنْواعِ اللَّحْمِ الْمَشْوِيِّ والْمُقَدَّدِ

والجُبْنِ والبَطارخِ والزَّيْتونِ والخُبزِ الطّازَجِ ، ويَنْهَضُ و وَجْهُهُ لا يزالُ يَنْبضُ بالجوعِ والنَّهَم . فلمْ يعرفْ طَوالَ الرِّحْلَةِ سِوى الأكلِ والشُّرْبِ والنَّوْمِ والشَّخيرِ ، في حينِ كنتُ أزاوِلُ صَنْعتي ، وأَرْجعُ إليْهِ بالدَّراهِمِ والطَّعامِ والشَّرابِ حتّى أُشْبِعَ نَهَمَهُ ؛ فَقَدْ كنتُ أكْتَفي بطَعامِ العَشاءِ معكَ كُلَّ مساءٍ وأحْمَدُ اللهَ على ذلكَ .

« وظَلَّتِ الحالُ على هَذا المنْوالِ حتّى اليوم الحادي والعِشرينَ ، عندما رسَتِ السَّفينةُ على مَدينةٍ كبيرةٍ عَرَفْنا منكَ أنَّها عَكّا ، وغادرَها جميعُ الرُّكّابِ للتِّجارةِ والفُرْجَةِ !»

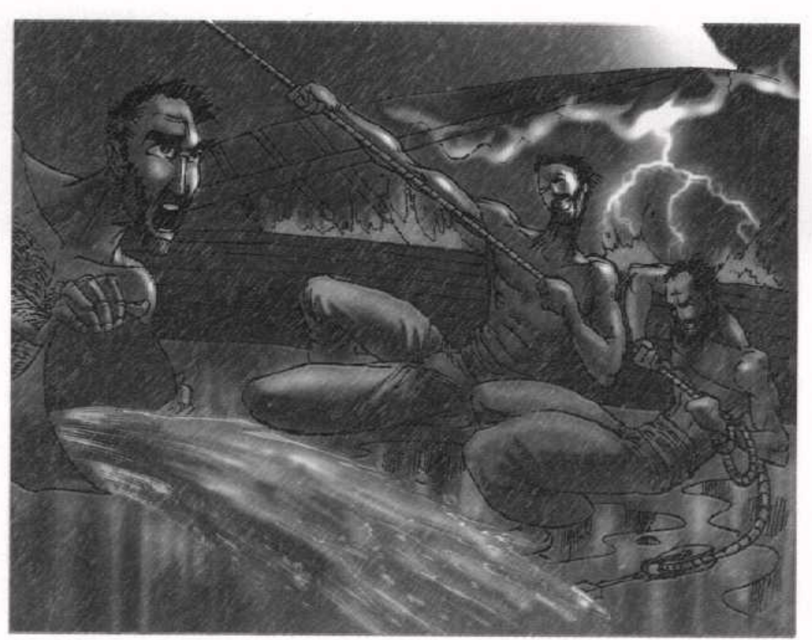
« وأنا لا أَنْسى دَماثَةَ أخلاقكَ عندَما ودَّعْتَني شاكِرًا لي ولأعْواني ضِيافَتَنا التي لمْ تكُنْ بالكَرَمِ الذي وَصَفْتَهُ لَنا ! في حينِ أنَّ عَيْني لمْ تَقَعْ على زميلِكَ أبي قير حتّى غادرَ السَّفينةَ ! فقدْ كانَ مُنْهمِكًا في الأكْلِ والنَّوْمِ والشَّخيرِ !»

تَبادَلا ضَحَكاتٍ مَرِحةً رَدَّدَ صَداها الأفقُ الذي اخْتَفى خَلْفَ أمواجٍ عاليةٍ قادِمَةٍ بِقِمَمٍ تُنذِرُ بعاصفةٍ عاتِيَةٍ . تَبادلَ ربيعٌ نظراتٍ سريعةً معَ الرُّبّانِ الَّذي نَهضَ لِتَوِّه لِيتسَلَّمَ مِنْهُ

عَجَلَةَ الدَّفَّةِ . وتَحوَّلَ فَحيحُ الرِّياحِ إلى زَمْجرةٍ ، وعَلا صَخَبُ الأمواجِ الْمُتلاطِمةِ ، وأصْبحتِ السَّفينةُ مثلَ أُرجوحَةٍ يتلاعبُ بها الأطْفالُ .

وفي لَحظاتٍ كانَ كُلُّ بَحّارٍ مُرابطًا في مَوْقِعِه : اثنانِ مُمْسِكانِ بحبالِ الشِّراعِ الكبيرِ ، في حينَ تَسَلَّقَ ثالثٌ الصّارِيَ ليقُومَ بطَيِّهِ حتّى لا تَنْقَلِبَ السَّفينةُ على أحَدِ جانِبَيْها .





أمّا الشّراعانِ الصَّغيرانِ فقدْ أمسكَ بكلٍّ منهُما بَحّارٌ؛ للْحفاظِ على التَّوازُنِ وتَحْريكهما لِتجنُّبِ التَّصدّي للْعاصفةِ الَّتي أصبحَتْ تَلْطِمُ السَّفينةَ بأمواجٍ شَرسَةٍ ، وتُغرقُ سَطْحَها بوابلٍ مِن المياهِ البارِدَةِ المالِحَةِ الَّتي لمْ يُخفِّفْ مِنْ وَطْأَتِها سِوى نَزْحِ البَحّارةِ لها بالدِّلاءِ .

لمْ يَمْلِكْ أبو قير سِوى تنفيذِ أمْرِ الرُّبّان والاختفاءِ في قَمْرتِهِ العاليةِ ، ولِسانُهُ يَلْهَجُ بأَدْعيَةٍ وتَساؤُلاتٍ مُرْعِبةٍ ؛ فَقَدْ تأكَّدَ أنَّ حياتَهُ ستَنْتهي بغَرَقِ السَّفينةِ .

٢

كانَتْ ليلةً ليلاءَ غابَ عنها القمرُ والسَّلامُ والهدوءُ . لم يَعْرِفْ أبو صير أنَّ حياةَ البَحّارةِ يُمْكِنُ أنْ تكونَ بهذِهِ الرَّهْبَةِ والرُّعْبِ ومواجهةِ الموتِ في أيَّةِ لحظةٍ ؛ إذْ كانَ يَظُنُّ أنَّ عَملَهم هو نُزْهةٌ بَحْرِيَّةٌ مُتَّصِلةٌ وإنْ لمْ تكنْ تَخْلو من مَتاعِبَ عابرةٍ ومُشَوِّقةٍ .

لكنَّهُ عندما واجَهَ الكابوسَ معهم بَلغَ بهِ الأمرُ شُعورَهُ بالغَيْرةِ لأوَّلِ مرَّةٍ من أبي قير القابعِ في كيسِه في القَمْرةِ السُّفْلى ! وهو لا يَشْعُرُ بأيِّ خَوْفٍ أو تهديدٍ لحياتِه ! أصابَهُ دُوارٌ عنيفٌ فلمْ يُفَرِّقْ بينَ اهتزازاتِ السَّفينةِ واهتزازاتِ جَسَدِه الْمُنتفضِ داخِلَ عَباءَتِه التي سَرى فيها البردُ والصَّقيعُ . تَلا الشَّهادتَيْن بلسانٍ مُتعثرٍ وشَفَتَيْن مُرتَعِشَتَيْن وقدْ تَشَبَّثَ بمقْعَدِه بذراعيْن من حديدٍ باردٍ ، في حينَ عَلَتْ طَقْطَقَةُ ألواحِ السَّفينةِ كأنَّها على وَشْكِ أن تَنْكسِرَ .

لا يَعرفُ إذا كانَ أَغْفى أمْ أُغْمِيَ عَلَيْهِ ، لكنَّهُ فَتَحَ عَيْنَيْهِ ليجدَ نورَ الفَجْرِ يتسلَّلُ من نافِذَةِ القَمْرةِ ، وقد حَلَّتِ الهَدْهَدةُ محلَّ الهزاتِ العنيفةِ . نَهضَ وهو يُقاوِمُ الدُّوارَ

ونَظرَ من النّافذةِ ليجدَ الرُّبّانَ خليفةَ واقفًا كالطَّوْدِ الشّامخِ مُمْسِكًا معَ ربيع بعجلةِ الدَّفَّةِ ، وهو يَتبادَلُ الضَّحَكاتِ الْمُجَلْجِلَةَ معَ بَحّارَتِهِ ؛ كأَنَّ العاصِفةَ كانتْ نُكتَةً مُثيرةً للمرحِ والدُّعابةِ .

خَرجَ أبو صير إليهِمْ وهو يُحاكيهِمْ في ثَباتِهِمْ وتَماسُكِهِمْ ، فبادَرَه الرُّبّانُ قائلاً :

« حَسَدْناكَ على نَومِكَ الهَنيءِ وأحْلامِكَ السَّعيدةِ !»

حاوَلَ أبو صير مُجاراتَهُ في مَرحِه ودُعابَتِهِ فَقالَ :

« حَلَمْتُ أنَّني في حديقةٍ جميلةٍ كُلُّها زُهورٌ وأطفالٌ كالملائكةِ ، أصَرُّوا على أنْ أركبَ أُرْجوحةً ، وظَلُّوا يَدْفعونَها في هَزّاتٍ عنيفةٍ وهمْ يُقَهْقِهونَ !»

« لا بدَّ أَنَّكَ تَضايَقْتَ عندما استَيْقَظْتَ من النَّوْمِ . . ولا بُدَّ أنكَ الآنَ جائعٌ . هيّا بنا إلى القَمْرةِ مَعًا لِتَناوُلِ طعامِ الإفْطارِ !»

ضَحِكَ أبو صير معَ الرُّبّان الذي تركَ العجلةَ معَ ربيع ، وأَمْسكَ بيدِ أبي صير لِيَدخُلا القَمْرةَ ويَجْلِسا حولَ المائدةِ ،



التي احتَشَدَتْ بأطباقِ الجُبنِ والزُّبْدِ والعَسَلِ والزَّيتونِ والبَيضِ والخُبزِ والفَطيرِ وماءِ الوردِ وشرابِ الحُلْبَةِ السّاخنِ.

انهمكَ الرُّبّانُ في الْتِهامِ قِطعةٍ من الفَطيرِ والجُبنِ وهو يُمازحُ أبا صير: «هيّا! لَقَدْ نِمتَ بدونِ عَشاءٍ!»

«لَيسَتْ لي شَهيَّةٌ على الإطْلاقِ!»

«أكْمِلْ لي قِصَّةَ أبي قير وشَهيَّتَهُ التي كانتْ مفتوحةً



دائِمًا !»

ابْتَسَم أبو صير وقد مَدَّ يدَهُ لكوبِ الحُلْبةِ ليرتَشِفَ منهُ قائلاً :

« عندما نَزَلْنا من السَّفينَةِ إلى عَكّا لاكْتِساب رِزْقِنا فيها ، ادَّعَى أبو قير أنَّهُ مِنَ الضَّعْفِ والإجْهادِ بحيثُ لا يَستطيعُ مُشارَكتي في حَمْلِ مَتاعِنا ، بِالرَّغْمِ مِنْ أنَّ

الرِّحلةَ لمْ تُصادِفْ عاصِفةً مثلَ عاصِفةِ اللَّيلةِ الماضِيَةِ !»

« لا بُدَّ أنَّهُ كانَ مُجهَدًا من التُّخَمَةِ والنَّوْمِ والشَّخيرِ !»

« الْمُهِمُّ حَملْتُ المتاعَ كُلَّهُ على كاهِلي حتّى وَصَلْنا إلى خانٍ قريبٍ من الميناءِ ، واسْتأْجَرْنا حُجْرةً فيهِ . وبَعْدَ أنِ اسْتَرحْتُ قليلاً تَرَكْتُهُ نائمًا وقدْ عَلا شَخيرُهُ كالعادَةِ ، وسِرْتُ في دُروبِ المدينةِ وطُرُقاتِها حامِلاً عُدَّتي ، فحَلقْتُ لكثيرٍ من النَّاسِ ثمَّ اشْتريتُ طعامًا لنَقْتَسِمَهُ مَعًا . وظَلِلْتُ على هَذهِ الحالِ أربعينَ يومًا ، أنا أعْمَلُ وأَدَّخِرُ وهو يأكُلُ ويَنامُ ، بحُجَّةِ أنَّهُ لا يَعْرِفُ عَملاً سِوى الصِّباغَةِ ، وبِمُجَرَّدِ أَنْ يَعملَ سَوْفَ يُسْهِمُ بالقِسْطِ الأكْبَرِ في الْمَصاريفِ . كنتُ أعودُ مُجْهَدًا فآكُلُ ثمَّ أَنامُ حتّى صَباحِ اليومِ التَّالي .

« وذاتَ صَباحٍ استَيْقظْتُ لأجِدَ أبا قير وقدْ سَطا على كُلِّ ما في الغُرفَةِ مِنْ دَراهِمَ مُدَّخَرَةٍ ، وعباءَةٍ جديدةٍ كُنتُ اشْتَرَيْتُها ، وخُفٍّ كُنْتُ أخْفيهِ بينَ طيّاتِ الفِراشِ . وانتظرْتُ عَوْدتَهُ عندما يَسْتَمِعُ إلى صَوتِ ضَميرِهِ ، لكنْ

هَيْهاتَ ! لقدْ نامَ ضميرُهُ وعَلا شَخيرُهُ مِثلُه تمامًا ! وشَعَرْتُ أنَّ الحَظَّ يُعانِدُني باسْتِمرارٍ ! فحتّى المدينَةُ التي سافَرْتُ إليها بَحْرًا عِشرينَ يومًا ، اكتشفتُ أنَّها لا تَعْرِفُ الحمّاماتِ التي كُنْتُ آمُلُ أنْ أعْملَ في أحَدِها نَظرًا لخبرتي الطَّويلةِ في هذا المجالِ . فَقنِعْتُ بالحِلاقةِ التي عادَتْ علَيَّ بالدَّراهِمِ التي سَرَقَها أبو قير ، فبدأتُ في الادِّخارِ الشَّحيحِ مِنْ جَديدٍ ؛ لَعلَّني أَسْتأجِرُ دُكّانًا يُصبحُ مَقرًّا لِعَملي كَما كُنْتُ في الإسكندريَّة ، بدلاً من التَّسَكُّعِ طَوالَ النَّهارِ على الزَّبائِنِ ، تَسَكُّعًا أشْبَهَ بالتَّسَوُّلِ !»

أَتى الرُّبّانُ على بَيْضَةٍ مَسلوقةٍ وهو يَقولُ مُبْتَسِمًا :

« لكنَّكَ تُرَدِّدُ دائمًا أنَّ دوامَ الحالِ مِنَ الْمُحالِ !»

« بدونِ شَكٍّ . لمْ أَنْسَ ما فعلَهُ أبو قير بي ! فكرَّسْتُ جَوْلاتي للحِلاقَةِ في السُّؤالِ والتَّقَصِّي عنهُ عِنْدَ زَبائِني ! فلَيْسَتْ هناكَ مِهنةٌ تُطلِعُكَ على أخبارِ النّاسِ وأسرارِهِمْ مثلُ الحِلاقةِ ! فالزَّبونُ يَسْتَسْلِمُ للمُوسَى والمِقَصِّ والثَّرْثَرةِ والاسْتِجابَةِ لتَساؤُلاتي في وقتٍ واحدٍ ! وعَلِمْتُ أنَّ أبا

قير كانَ قَدْ لاحَظَ أنَّ جميعَ الملابسِ الَّتي يَرْتديها أهالي عكّا لونُها أبيضُ أو أَزرَقُ ، وليسَ هناكَ أيُّ لونٍ آخَرَ . فعَجبَ مِنْ هَذا الأمر ، وسَأَلَ صاحِبَ أَوَّلِ مَصْبغةٍ صادَفَها في طَريقه عَنْ سِعْرِ صَبْغ العَباءة البيضاء التي كانَ يَرْتَديها ، فأجابَهُ بأنَّهُ عِشرونَ دِرْهمًا ! فأَعْربَ أبو قير عَنْ رغْبته في صَبْغ أَرْبَعة أثواب ، أحدُها باللَّون الأحْمر ، والثّاني بالأخْضر ، والثّالثُ بالأصْفَر ، والرّابعُ بالأزْرَق ؛ فسَخِرَ مِنْهُ صاحبُ المصْبَغة لأَنَّهمْ لَمْ يَكونوا يَعرفونَ سِوى الصِّباغَة باللَّوْن الأزْرَق . عِنْدَئذ أَعْلَنَ أبو قير عَنْ صَنْعته كصَبَّاغ وقُدْرَته على الصِّباغَة بكُلِّ الألْوان ، وتَعليمه إيّاها إذا أَلْحَقَهُ بالعمل في مَصْبَغَته ، وبذلكَ يكونُ لَهُ فَخْرُ السَّبْق على كُلِّ الصَّبّاغينَ في عَكّا ، لكنَّ الرَّجلَ أكَّدَ لهُ أنَّ أبْناءَ حِرْفَته لا يَقْبَلونَ دُخولَ أيِّ غَريبٍ فيها .

« وظَلَّ أبو قير يَتَنَقَّلُ من مَصْبَغَةٍ إلى أخْرى حتّى طافَ على أرْبعينَ مَصْبَغَةً ، لكنَّهُ قُوبلَ بالرَّفْض نَفْسه . فتوجَّهَ إلى شَيْخهِمْ لِيَشْكُوَ أَصْحابَها إليه ، وطلبَ مِنْهُ أنْ يُساعِدَهُ في فَتْحِ مَصْبَغَةٍ لنَفْسه ، وأَغْراهُ بأنْ يُشاركَه فيها

ولَهُ النَّصيبُ الأكْبرُ واليدُ العُلْيا في إدارَتِها ، لكنَّ الرَّجُلَ سَدَّ في وَجْهِه كُلَّ مَنافِذِ الأَمَلِ !

« ولَمْ أعْرِفْ شيئًا عن أخْبارِه بعدَ ذلكَ إلا عندما دَوَّتْ شُهرتُهُ في الآفاقِ كصاحِبِ أكبرِ مَصْبَغَةٍ بالألْوانِ المختلفةِ في عَكّا ، بلْ وَشيخِ الصَّبّاغينَ !

« وتَسابَقَ أكابرُ البلدِ من الوُزراءِ والقُوَّادِ والتُّجّارِ وغَيْرِهِمْ في إرسالِ الأقْمِشَةِ إليهِ ؛ لِيَصْبُغَها لَهمْ بتلكَ الألوانِ ، ويَبْذلوا لهُ الذَّهَبَ والفِضَّةَ بغيرِ حسابٍ. ولَمْ يَعُدْ أحدٌ يَرْضَى بمُعاملةِ أيَّةِ مَصْبَغَةٍ أخرى غيرِ مَصْبَغَتِه التي أُطْلِقَ عَليها اسمُ مَصْبَغَةِ السُّلْطانِ . فتكاثَرَتْ أَرْباحُهُ ، وجَمَعَ ثَروةً كَبيرةً ، واشْتَرى لِنفسه قَصْرًا عَظيمًا . لكنَّني لمْ أكُنْ أَعْرِفُ أَنْ دَوامَ الحالِ من الْمُحالِ يُمكنُ أنْ يَصِلَ بهِ إلى هذهِ الحالِ !»

قَهْقَهَ أبو صير لأوَّلِ مَرّةٍ مُنْذُ بدايةِ الرِّحْلَةِ في ارْتياحٍ واضِحٍ ، وقَدِ انْفَتَحتْ شَهِيَّتُهُ لِلطَّعامِ ، في حينَ قالَ الرُّبّانُ :

« وأسْتَطيعُ أنا بدَوْري أَنْ أحْكِيَ لَكَ كيفَ وَصَلَ إلى هذهِ الحالِ ! فقد كُنْتُ شاهِدَ عِيانٍ بصفتي قائدًا لأسْطولِ عَكّا ، ودائِمَ التَّردُّدِ على قَصْرِ الوالي لِتلقِّي الأوامرِ أوَّلاً بأوَّل . لمْ أكُنْ أَعْرفُ في البدايةِ أنَّهُ زميلُكَ ؛ إذْ إنَّني كُنْتُ قَدْ نَسيتُ اسْمَهُ ، أو رُبَّما لمْ تَذكُرْهُ أنْتَ أمامي على الإطْلاقِ في الرِّحْلة السّابقةِ . الْمُهِمُّ أن جُرْأتَهُ دَفَعتْهُ إلى التَّوجُّهِ إلى قَصْرِ الوالي ، وظَلَّ يُلِحُّ في مقابَلَته ، إلى أنْ حَظِيَ بشَرَفِ لِقائِهِ ، وحَدَّثَهُ بكُلِّ ما جَرى لهُ مَعَ الصَّبّاغينَ وشَيخِهِمْ ، وأخذَ يَصِفُ لهُ ألوانَ الصِّباغَةِ الْمُختَلِفةَ مِنْ أَحْمَرَ كُوري وعُنّابي ، ومِنْ أَخْضَرَ زَرْعي وفُسْتُقي وزَيتي وجَناحِ الذُّرَةِ ، ومن أسْوَدَ فَحْمي وكُحْلي ، وأَصْفَرَ لَيْموني ونارِنْجي ، وغيرِ ذلكَ . وأُعْجِبَ الوالي بهذهِ الألْوانِ لدرجَةِ أنَّهُ قالَ لَهُ :

« سأفْتَحُ لَكَ مَصْبَغَةً كَبيرةً ، وإذا تَبَيَّنَ لي صِدْقُكَ فسَأجْعَلُكَ شيخَ الصَّبّاغينَ في ولايَتي كُلِّها ، وكُلُّ مَنْ يَتَعَرَّضُ لَكَ مِن الصَّبّاغينَ سَأَشْنُقُهُ على بابِ مَصْبَغَتِكَ !

« وبالفِعْلِ أَمَرَ الوالي بإنْشاءِ مَصْبَغَةٍ كبيرةٍ لأبي قير ،

بلْ وأنْزَلَهُ في ضِيافَتِهِ الفاخِرَةِ إلى أنْ بَدأَتِ الْمَصْبَغَةُ العَملَ في صَبْغ بعضِ الْمَلابسِ بمختلفِ الألْوانِ الَّتي ذَكرَها لِلْوالي ، الذي لَمسَ بنَفْسِه صِدْقَهُ وكَفاءَتَهُ ومَهارَتَهُ - فأغْدَقَ عليهِ مالاً وَفيرًا ، وجَعَلَهُ شَيْخَ الصَّبَّاغينَ ، كَما ذكَرْتَ أنْتَ نفسُكَ ، يا سَيِّدُ أبو صير . وتَكالَبَ عليهِ الصَّبّاغونَ لِتَقْبيل يدَيْهِ وقدمَيْهِ حتّى يَقْبلَهُمْ عُمَّالاً في مَصْبَغَته ، لكنَّهُ لمْ يُجبْ رَجاءَهُمْ حتّى لا يُعلِّمَهمُ الصِّباغَةَ بالألوانِ ، ولِيَبْقَى هو وَحْدَهُ مُحتَكِرًا لهذهِ الصِّناعَةِ الجديدةِ في الولايةِ كُلِّها !»

اسْتَرخى أبو صير وقالَ ، وهو يَشْرَبُ كوبًا مِنْ ماءِ الوَرْدِ : « لمْ أكُنْ أَعْرِفُ هذهِ التَّفاصيلَ ، أَيُّها الرُّبَّانُ ، لكنَّني بمجرَّدِ أنْ نَمَى إلى عِلْمي مكانُ مَصْبَغَته ، أَسْرَعْتُ إليهِ وكانَ ظَنِّي أنَّ سُرورَهُ سيكونُ عظيمًا عندما يَراني ، خاصَّةً عندما أهَنِّئُهُ مُتغاضيًا عن سَرِقَتِهِ لكُلِّ ما ادَّخَرْتُهُ من عَملي حَلاقًا . ودخَلْتُ المصبغةَ لأجدَ في صَدْرِها دَكَّةً عاليةً مَفْروشَةً بأفْخَرِ السَّجّادِ وعليها وَسائِدُ وطَنافِسُ من الحريرِ الثَّمينِ ، وقدْ تَرَبَّعَ عليها أبو قير كمَلِكٍ



على عَرْشِهِ ، ومِن حَوْله عَشَرةٌ مِن الْمَماليكِ في أفْخَرِ الْمَلابِسِ ، على حين أخذَ الْمَماليكُ والعُمّالُ الآخَرونَ يُزاوِلونَ العَملَ في الْمَصْبغةِ ، حَسَبَ أوامِرِهِ لَهُمْ ، وبعضُهُمْ يَتولَّوْنَ تَسَلُّمَ الأقْمِشةِ مِن العُمَلاءِ ، أوْ تَسْليمَهُمُ الأقْمِشَةَ التي تَمَّ صَبْغُها ، ثُمَّ يَضَعونَ الذَّهبَ والفِضَّةَ أمامَ أبي قير في أكْياسٍ ، وكُلَّما امتلأ كيسٌ مِنها ، أمَرَ بنقْلِهِ إلى خزائِنِه بَعْدَ خَتْمِهِ بِخاتَمِه !»



بلغَ الشَّوْقُ بالرُّبّانِ مَداهُ فلمْ يَصْبِرْ وسَأَلَ في شَغَفٍ :

« هَلْ رَأَيتَ كُلَّ هذا دونَ أنْ يَراكَ ؟»

« حانَتْ مِنْهُ الْتِفاتَةٌ إلى الجِهةِ التي وَقَفْتُ فيها ، فلمّا وَقَعَتْ عليَّ عَيْناهُ عَرَفَني على الفَوْرِ ، لكنَّهُ تَجاهَلَني وصاحَ بي غاضِبًا : « ما الذي جاءَ بكَ إلى هُنَا أيُّها اللِّصُّ الخَبيثُ ؟ أما عَفوْتُ عنكَ في المرَّةِ السّابقةِ على أنْ

تتوبَ ولا تَعودَ إلى السَّرِقَةِ ؟›› ثُمَّ أمَرَ مماليكَهُ بأنْ يَقْبضوا عَلَيَّ . وبرَغْم استِغاثَتي الصّارخَةِ النّافيةِ لِلتُّهْمَةِ ، أوْثَقوني بالحِبالِ وألْقَوْني على بَطْني أمامَهُ ، فقامَ مِنْ مَجلِسهِ ، وجاءَ بعصًا غليظةٍ وظلَّ يَهْوي بها على ظَهْري حتّى كادَ يَقْضي عليَّ ، ثمَّ أمرَ بحَلِّ وَثاقي وهو يَصيحُ مُعْلِنًا بأنَّهُ سَيَصْفَحُ عَنّي في هذهِ المرَّةِ أيضًا ، لكنَّها المرَّةُ الأخيرةُ ؛ لأنَّهُ سَيُرْسِلُني في المرَّةِ القادمةِ إلى الوالي لِيَشْنُقَني ويُريحَ النّاسَ مِنْ شَرِّي وخِسَّتي ! تَحامَلْتُ على نَفْسي وغادَرْتُ الْمَصبغَةَ باكِيًا مَكسورَ الخاطرِ ومُشَيَّعًا بشتائمِ الزَّبائنِ الْمُزدحِمينَ في المصْبَغَةِ . »

لمْ يُخْفِ الرُّبّانُ ذُهولَهُ وهو يَتراجعُ بمَقعدِهِ إلى الخَلْفِ وتَساءَلَ بدَهْشَةٍ :

« لِهذهِ الدَّرَجَةِ ؟! فِعْلاً إذا لمْ تَسْتَحِ فاصْنَعْ ما شِئْتَ !»

قال أبو صير : لكنْ رُبَّ ضارَّةٍ نافعةٌ . . فعندما عُدْتُ إلى الخانِ مُحطَّمًا ، ظَلِلْتُ ليلةً بأكْملِها أتَوجَّعُ مِن الضَّرْبِ والإهانةِ . . وفي الوقتِ نَفْسِه أتأمَّلُ أحْوالِيَ

البائسةَ والحالَ التي بلَغَها أبو قير بدَهائه ومَكْره وخُبْثِه !
وسألْتُ نَفْسي : « إذا كانَ صَدْرُ والي عكّا رَحْبًا بهَذا الشَّكْلِ لِكُلِّ فِكْرةٍ جديدةٍ ؛ إذْ لا يُعْقَلُ أنْ يُحقِّقَ أبو قير كُلَّ هَذا العزِّ والرَّفاهيةِ ، ويُصبحَ مِلءَ السَّمْعِ والبَصرِ دونَ ترحيبٍ مِنْه - فَلِماذا لا أُحاولُ مقابَلتَهُ كيْ أعرِضَ عليهِ خِبْرتي الكبيرةَ والقديمةَ في الحمّاماتِ التي تَخْلو منها عَكّا تمامًا ، لِدرجةِ أنَّ قَصْرَهُ هو نَفْسُه ليسَ فيهِ حَمّامٌ ؟ فلا يُعقَلُ أنْ يَكْتَفِيَ النّاسُ بالاستحمام في البحرِ صَيفًا ، ثمَّ يَظَلُّونَ بلا استِحمامٍ طوالَ الشِّتاءِ ، لِدرجةِ أنَّ بَعْضَهمْ أصيبَ بأمْراضِ الجرَبِ والحَكَّةِ والهَرْشِ !

« عندئذٍ قَرَّرْتُ - وأنا أرى نورَ الفَجْرِ يتسلَّلُ مِن نافِذَتي - أنْ ألحَّ في لِقاءِ الوالي بمجرَّدِ أنْ أتماثَلَ لِلشِّفاءِ مِن آثارِ الضَّرْبِ الْمُبَرِّحِ ، فاليَأسُ مِنْ رحْمَةِ اللهِ لا يَعرفُ طَريقًا إلى قَلْبي . وبالفعلِ وَفَّقَني اللهُ لِلقاءِ الوالي ، وأخذتُ أصِفُ لهُ حمّاماتِ السُّوقِ في الإسكندريَّةِ وأشْرَحُ لهُ مَزاياها وفوائِدَها ، وكيفَ أنَّها تُكْسِبُ رَعاياهُ الصِّحَّةَ والنَّظافةَ والجَمالَ . ولمْ يَترَدَّدِ الوالي في

التَّرحيب بالفكرةِ الجديدةِ ، بلْ ونَفَّذَ كُلَّ طَلَباتي ؛ فوضعَ تحتَ يَدَيَّ عَشَرةً مِن البَنّائينَ ، وعَشَرةً مِن النَّجّارينَ ، وعَشَرةً مِن النَّحّاسينَ ، وأَمَرَ لي بقِطْعَةٍ مِن الأرْضِ لإقامَتي عَليها ، وأَعْطاني ألْفَ دينارٍ ثمَّ أيَّ مَبْلغٍ أطلُبُه بَعْدَ ذلكَ . »

نَهضَ الرُّبّانُ مُغادِرًا القَمْرَةَ وخَلْفَهُ أبو صير إلى حَيْثُ كانَ ربيعٌ لا يزالُ مُمْسِكًا بعجلةِ الدَّفَّةِ ، وإلى جوارِهِ ثلاثةٌ مِن البَحّارةِ يَسْتَمِعونَ في شَوْقٍ إليهِ وهو يَقُصُّ عَليهمْ بداياتِ قِصَّةِ أبي صير معَ أبي قير . تَبادلَ الرُّبّانُ وأبو صير نَظراتٍ باسِمَةً في حينَ قالَ ربيعٌ : « جميعُ البَحّارةِ مُصِرُّونَ على مَعْرِفَةِ كُلِّ تَفاصيلِ القِصَّةِ الْمُثيرةِ !»

قَهْقَهَ الرُّبّانُ وهو يُمْسِكُ بالعَجلةِ قائلاً :

« أَمامَنا وَقْتٌ يَكفي لحكايَتِها عَشْرَ مرّاتٍ على الأقَلِّ قَبْلَ أنْ نَصِلَ إلى الإسكندريَّة بسلامةِ اللهِ !»

اقْتربتِ السَّفينةُ مِنْ جَزيرةٍ صَخْرِيّةٍ مَهجورةٍ وقدْ رَصَّعَتْها الطَّحالِبُ بخُضْرَتِها المتألِّقَةِ في ضَوْءِ الشَّمْسِ ،

وأَسرابُ النَّوْرَسِ تَقِفُ على قِمَمِها الْمُدَبَّبَةِ وقد انهمكَتْ في تَمْشيطِ ريشِها النّاصع البَياضِ بمَناقيرها البرتقاليَّةِ ، في حينَ حَلَّقَ البعضُ الآخَرُ ثمَّ انْقَضَّ على الأسماكِ السّابحةِ بالقُربِ مِنْ قِمَمِ الأمْواجِ .

٣

واصَلَتِ السَّفينَةُ رِحْلَتَها إلى الإسكندريَّةِ ، ونَمَتِ الأُلْفةُ الحَميمةُ بينَ أبي صير والرُّبّانِ وبَحّارتِهِ ، حتّى أَصْبَحوا أُسْرَةً واحِدةً . فقدْ أحَبّوهُ وبُهِروا بهِ ، ليسَ لأنَّ الوالِيَ أَكْرمَهُ بتكليفِ قائد أُسْطولِه لِتوصيلِه بنَفْسه إلى بَلَده الإسكندريَّةِ ، بَلْ لأَنَّهُ كانَ يَشعُّ بالحبِّ والمودَّةِ والتَّواضُعِ والوَداعَةِ على كُلِّ مَنْ حَوْلَهُ ، لدرَجَةِ أنَّهمْ شَعَروا أنَّ الوَقْتَ يَمُرُّ أسْرَعَ ممَّا اعْتادوا في رِحْلاتِهمُ السّابقةِ .

وكَمْ كانَتْ سَعادتُهمْ وهو يُواصِلُ سَرْدَ حِكايتِه بكُلِّ الصِّدْقِ والتَّواضُعِ ، وحتّى البَّحارةُ الَّذينَ رابَطوا في

أماكِنَ لا تُمَكِّنُهُمْ مِن الاسْتِماعِ إلَيْهِ ، كانوا يَحرِصونَ على مَعْرِفةِ ما فاتَهُمْ مِنْ زُمَلائِهِمْ عِنْدَ انتهاءِ نَوْباتِهِمْ .

كانَتِ الليلةُ هادِئَةً ، والبحرُ ساكِنًا ، والقمرُ غائبًا ، ولَوْلا المشاعِلُ التي تَناثرتْ عِنْدَ مُقدِّمَةِ السَّفينةِ ومُؤخَّرتِها وجَنَباتِها ، ما رَأى أحدٌ وَجْهَ الآخَرِ . لمْ يَملإِ الهواءُ الشِّراعَ الكبيرَ كعادتِهِ فَسارتِ السَّفينةُ الهُوَيْنى ، وتَناهَتْ إلى الأسْماعِ قَفزاتُ الأسْماكِ المتراقِصةِ حولَها ، فَجلْجَلَ صوتُ أبي صير وردَّدَ السُّكونُ صَداهُ :

« لمْ يَقِفْ كرمُ الوالي مَعي عِنْدَ حَدٍّ ؛ فقَدْ دَعا وَزيرَهُ الأكبرَ وكَلَّفَهُ أَنْ يُنَفِّذَ كُلَّ أوامِرِه الخاصَّةِ ببناءِ الحمَّام ، كما أَمَرَ لي بحُلَّةٍ فاخِرةٍ مُطَرَّزَةٍ بأَجْمَلِ الألْوانِ ، وجَوادٍ عَربيٍّ أصيلٍ ، ودارٍ لِلسُّكْنى حَسَنَةِ الأثاثِ معَ بعضِ الخَدَمِ لخِدْمتي ، فلمْ أملِكْ سِوى أَنْ أقبِّلَ يَدَهُ شاكِرًا وأَنْصَرِفَ معَ الوزيرِ الأكبرِ ، لِلبَدءِ في المشروعِ الكبيرِ ، في المكانِ الذي اخترتُهُ في وَسَطِ المدينةِ ، بالقُرْبِ مِن قَصْرِ الوالي ، وكذلكَ مَصبغةِ السُّلْطانِ التي يَمتلكُها أبو قير .

« وتمَّ بناءُ الحمّام وفَرشُه ، وتَزْيينُهُ مِن الداخِلِ والخارجِ ، حتى صارَ بهجةً لِلنّاظِرينَ . ثمَّ دَعَوْتُ الوالِيَ إلى الفُرجةِ عليهِ ، ولَمّا رآهُ طارَ بهِ إعجابًا ، وكانَ أوَّلَ مَنْ جَرَّبَ الاسْتِحمامَ فيهِ عَلى يَدَيَّ ، فلمّا انتهى مِن ذلكَ ، انتابَهُ الانْتِعاشُ والسُّرورُ إلى درجةِ النَّشْوةِ ؛ لأنَّ جسمَهُ تَرعْرعَ مِن النَّظافةِ بالماءِ الحارِّ والصّابونِ والتَّدليكِ والتَّكبيسِ والتَّبخيرِ ، وقَلَّتْ مُعاناتُهُ من نَوْباتِ الهَرْشِ التي كانتْ تنتابُهُ في الشِّتاءِ على وَجْهِ الخصوصِ لِعدَمِ الاسْتِحمامِ ، فأمرَ لي بعَشْرةِ آلافِ دينار وسَمحَ بأنْ أُطْلِقَ على حمّامي اسمَ « حَمَّام السُّلْطانِ » ، وأنْ أَحْصُلَ مِنْ كُلِّ واحدٍ يَدخلُهُ للاستحمامِ على ألْفِ دينارٍ . فقدْ رَأى أنَّ هَذا أَقلُّ ما أسْتَحِقُّهُ على مِثْلِ هَذا العملِ العَظيمِ الْمُفيدِ .

« لكنَّني قُلْتُ لَهُ : ‹‹ يا مَوْلايَ ، إنَّ النّاسَ ليسَ فيهِمْ مَنْ يَقْدرُ على دَفْعِ هَذا الْمَبلغِ مِثْلَكَ ، والأفْضَلُ أنْ نَجعلَ أجْرَ الدُّخولِ إلى الحمّام بحَسَبِ ما تَسْمَحُ به حالةُ كُلِّ شَخْصٍ ، لكيْ يَعُمَّ الانتِفاعُ بهِ ، وتتحسَّنَ صحَّةُ الأهالي ، ويَتعوَّدوا النَّظافَةَ ، وربُّما تغلَّبْنا على داءِ الحِكَّةِ

والهَرْشِ نِهائيًا ، فيزدادَ نشاطُهم في أَعْمالِهِمْ ويَزدادَ الرَّخاءُ تبعًا لِذلكَ . ››

« صَمتَ أبو صير لِيَبْتَلِعَ ريقَهُ في حينَ قالَ الرُّبّانُ وهو يَنْظُرُ باسِمًا إلى الأَصْطُرْلابِ الموضوعِ تحتَ الشُّعْلةِ المثبتةِ في الصّاري الكبيرِ ؛ حتّى يَطمئنَّ إلى سَيْرِ السَّفينةِ في اتِّجاهِها الصَّحيحِ :

« كانَ التَّفكيرُ في التَّغَلُّبِ على داءِ الحِكَّةِ والهَرْشِ نِهائيًا بمثابةِ القَشَّةِ التي قَصَمَتْ ظَهْرَ البعيرِ !»

توهَّجَ الشَّوْقُ على وُجُوهِ البحَّارةِ في ضوءِ المشاعِلِ ، ولمْ يَسْتَطِعْ ربيعٌ أن يَمْنَعَ نفسَهُ مِن التَّساؤُلِ والتَّعَجُّبِ :

« باللهِ عليكَ ، لا تَتْرُكْنا عَلى أحَرَّ مِنْ جَمْرٍ حتّى تَقُصَّ عَلَيْنا حِكايةَ القَشَّةِ التي قَصَمتْ ظَهْرَ البَعيرِ !»

« لا تَتعجَّلِ الحوادثَ ، يا ربيعُ . كُلُّ شَيْءٍ بأوانٍ !»

أمَّنَ الرُّبّانُ على كَلِماتِ أبي صير قائِلاً :

« ونَحنُ كلُّنا آذانٌ مُصْغِيةٌ . . فَنحنُ لا نتعجَّلُ الحوادِثَ

بلْ نريدُكَ أَنْ تُطيلَ فيها بِقَدْرِ اسْتِطاعَتِكَ !»

ابتسمَ أبو صير في سَعادةٍ ، وتَدفَّقَتْ كلماتُهُ في نَشْوةٍ :

« المهمُّ أنَّ الوالِيَ اقْتَنَعَ بتَرْكِ تحديدِ سعرِ الاسْتحمامِ لكلِّ زَبونٍ بحسَبِ ما تَسمحُ به حالتُهُ ، لكنَّهُ إكرامًا لي فَرَضَ عَلى جَميعِ الأمراءِ والوُزراءِ وكِبارِ التُّجّارِ أنْ يُعطِيَني كلُّ واحدٍ منهمْ ألْفَ دينار ومملوكًا وجاريةً في أوَّلِ مَرّةٍ يَدخلُ فيها الحمّامَ ، وقَبِلَ الجميعُ ذلكَ مَسْرورينَ . وإذْ في بضعةِ أيّام تَنهالُ عليَّ ثروةٌ مِن الذَّهبِ والفِضَّةِ لم أكنْ أحْلُمُ بجمْعِ مِثْلِها طيلةَ عُمْري !»

عادَ ربيعٌ إلى التَّعْليقِ لكنْ في مرحٍ هذهِ المرّةَ :

« مَنْ جاورَ السَّعيدَ يَسْعَدْ !»

شارَكَهُ الرُّبّانُ في دُعابتِهِ :

« اللهمَّ لا حَسَدَ !»

ضَحِكوا جميعًا لكنَّهمْ سَرعانَ ما صَمَتوا في شوقٍ لِما سَيَقولُهُ أبو صير :

« وبَعْدَ أنِ انْتَهى الأمراءُ والوُزراءُ والقُوَّادُ وأكابرُ التُّجّارِ والأعيانِ مِن الفُرجةِ عَلى الحمّام والاسْتحمام فيهِ لأوّلِ مرَّةٍ وتَنْفيذِ أوامِرِ الوالي بدفْعِ ألفِ دينارٍ وإهْدائي مملوكًا وجاريةً . أَذِنَ لِيَ الْمَلِكُ في إدخالِ كلِّ مَنْ يشاءُ مِنْ أهْلِ المدينةِ ، فَصارَ النّاسُ يَزْدَحِمونَ في طابورٍ طويلٍ أمامَ بابِ الحمّام مُنذُ فجرِ كُلِّ يوم ، فكنتُ أَسمَحُ بدخولِهِمْ طائفةً بَعْدَ طائفةٍ ، وأحصُلُ مِنْ كُلِّ واحدٍ منهمْ عَلى ما تسمَحُ بهِ نَفْسُه !»

عادَ ربيعٌ إلى التَّساؤُلِ الْمُلحِّ :

« لكنْ لمْ يَكُنْ هناكَ مَنْ يَعرِفُ أسْرارَ المهنةِ سِواكَ ؛ فكَيْفَ قُمتَ بهذا العِبْءِ الجَسيمِ بمفردِكَ ؟»

« سؤالُكَ مَنْطِقيٌّ وإنْ كانَ يَحملُ الإجابةَ عنهُ في طيّاتهِ ! كانَ مِنَ الطَّبيعيِّ قَبْلَ أنْ يَبدأَ الحمّامُ نَشاطَهُ أنْ أُدرِّبَ عَشَرَةَ مماليكَ شُبّانٍ عَلى الخِدْمةِ في الحمّام ؛ مِنْ تَدليكٍ وتَكْبيسٍ وتَبْخيرٍ وغيرِ ذلكَ ، ثُمَّ زادَ عَدَدُهمْ إلى مئةٍ عندَما أَضَفْتُ إلى الحمّامِ أكثرَ مِنْ مُلْحَقٍ ، ثمَّ عَيَّنْتُ

حُرّاسًا أَشِدّاءَ لِتنظيمِ دُخولِ الحمّامِ في هدوءٍ واحترامٍ ونظامٍ ، وخاصّةً أَنّني خَصَّصْتُ يومًا في الأسبوعِ لاسْتِحْمامِ الملكِ وأهلِ بَيْتِه ، مِن أَوّلِ النَّهارِ حتّى الظُّهْرِ ، ولاسْتِحمامِ الوُزراءِ والعُلماءِ ورُؤساءِ العَساكرِ وأمثالِهِمْ مِن الظُّهرِ حتّى العِشاءِ .

« وتَكدَّستْ خَزائني بالذَّهَبِ والفِضَّةِ ، وصارَ عِنْدي عددٌ لا يُحْصَى مِن الْمَماليكِ والجَواري والعَبيدِ ، فأَخَذْتُ في تَوسيعِ الحمّامِ ، وجَعْلِه عَلى درجاتٍ ومُسْتَوياتٍ تُناسِبُ كُلَّ طائفةٍ عَلى حِدَةٍ . فخصَّصْتُ للأميرةِ زوجةِ الوالي وحاشِيَتِها قِسْمًا خاصًّا ، بَعْدَ أَنْ قُمْتُ بتدريبِ عَشَراتٍ مِن الجَواري على خدمةِ النِّساءِ ، كَما خصَّصْتُ وَقْتَ ما بَيْنَ الظُّهْرِ والعَصرِ كُلَّ يومٍ لِنساءِ المدينةِ . وعِندَما أَصْبحَ لديَّ جيشٌ مِن المماليكِ والجَواري والعبيدِ ، يَفيضُ كثيرًا عنْ حاجَتي ، أَصابَتْني الحيرةُ ، إلى أَنْ هَداني تَفْكيري ذاتَ يومٍ وأنا أقومُ بِتَكْبيسِ الوالي بِنَفْسي فقلتُ :

« ‹‹ يا مَوْلايَ ، لقدْ كَثُرَ المماليكُ والجَواري عِندي ،

وهُمْ يُكلِّفونَني كثيرًا ، ولستُ أحتاجُ إلى أكثرَ مِنْ عَشَرةٍ مِنْ هَؤلاءِ وهَؤلاءِ . . هَذا بالطَّبْعِ سِوى المماليكِ والجَواري الذينَ يَعْملونَ في الحمّام ، فالرأْيُ عِنْدي أن تُخلِّصَني مِنْهُمْ وتَأْخُذَهُمْ إلى قَصْرِكَ العامِرِ . ››

« لمْ يَكنِ الوالي يَردُّ لي طَلبًا ؛ فأجابَني عَلى الفَوْرِ :

« ‹‹ لكَ ما تُريدُ ! ››

« ثمَّ أَمَرَ لي في نظيرِ ذلكَ بمائةِ أَلْفِ دينارٍ صُرِفَتْ لي في نَفْسِ النَّهارِ مِن الخازِنْدار . ولمْ أَتوَقَّفْ عَنِ الدُّعاءِ لَهُ ليلَ نهارَ بدوامِ العزِّ وطُولِ البَقاءِ ، فَلَمْ تَمْضِ عدَّةُ أَشْهُرٍ بَعْدَ إنشاءِ الحمّامِ حتّى صِرتُ مِنْ كِبارِ الأغْنِياءِ في الولايةِ كُلِّها ، وعِشْتُ عِيشَةَ الملوكِ . وكانَ حُبُّ الناسِ لي ثروةً أعظمَ وأَثْمنَ !»

تَأَثَّرَ الرُّبّانُ فتهدَّجَ صوتُهُ وهو يشُقُّ بنظراتهِ الحادَّةِ طيّاتِ الظَّلامِ الْمُتكاثِفةَ حولَ السَّفينَةِ :

« لمْ يأتِ هَذا الحُبُّ مِنْ فراغٍ ، يا سيِّدُ أبو صير ؛ إذْ أحَبَّكَ الناسُ لِحُسْنِ مُعاملتِكَ وكرمِ أخلاقِكَ ؛ فَقَدْ كُنْتَ

تَحترِمُ الكُبراءَ وتَخدُمُهمْ بنفسِكَ ، وتُكرِمُ الفُقراءَ فلا تَأْخُذُ منهمْ أجْرًا على دُخولِ الحمَّام ، بَلْ كُنْتَ تُعْطيهمْ ممَّا أعْطاكَ اللهُ . . وأَنا شخصيًا أَصْبحْتُ في مُقَدِّمَةِ الْمُعْجَبينَ بكَ ، وكانَ اعْتِزازي بصداقتِكَ يَفوقُ الحدَّ . وكَمْ كانَتْ سَعادتي بالِغةً عِندَما كنّا نَقْضي أوقاتَ فراغِنا مَعًا في قصرِ أَحدِنا . وكلَّما مَضَتِ الأيَّامُ كنتُ أَزْدادُ حُبًّا لكَ ، وإعجابًا بظَرْفِكَ وكَرمِ أخْلاقِكَ ولُطْفِ مُعاملتِكَ . وكَمْ تَمنَّيتُ أنْ أَرُدَّ لكَ أفْضَالَكَ عليَّ ، لكنَّني لمْ أَجِدْ طريقةً لِذلكَ !»

لَمَعَ وَميضُ الدُّموعِ في عَيْنَيْ أبي صير وهوَ يقولُ في انفعالٍ شديدٍ :

« كيفَ تَقولُ مِثلَ هَذا الكلامِ ، يا سيِّدُ خليفةُ ، وأنْتَ الذي أَنْقذْتَني مِنْ بَراثِنِ أبي قير ، ثمَّ شَرَّفْتَني باصْطِحابي الآنَ شخصيًا إلى الإسكندريَّةِ ، وأنتَ قائدُ الأسطولِ ورئيسُ البحريَّةِ ؟»

« أَسْتغفِرُ اللهَ ! إنَّما الفضلُ فضلُ اللهِ . . كما أَنَّني لمْ

أفْعَلْ سِوى تنفيذِ أوامِرِ الوالي !»

« التَّواضُعُ مِنْ شِيَمِ العُظَماءِ !»

قَرَّرَ الرُّبّانُ خليفةُ العودةَ إلى قِصَّةِ أبي صير المثيرةِ ، خاصَّةً جوانِبَها التي لمْ يَطَّلِعْ عَلَيْها ، فسَأَلَهُ :

« لكنْ . . كيفَ ظَلَّ أبو قير بعيدًا عنكَ طَوالَ كلِّ هذهِ المدَّةِ ، في حينِ أنَّ شُهْرَتَكَ طَبَّقَتِ الآفاقَ . . ومَصْبغتُهُ كانتْ قريبةً مِن حمَّامِكَ ؟»

« عِندَما يَنْهمِكُ أبو قير في جَمْعِ ثَرواتِهِ وإشْباعِ رَغباتِهِ المختلفةِ مِن طعامٍ وشرابٍ ومَلْبَسٍ وما إلَيْها - فإنَّهُ يُمكِنُ أنْ يَنْسى أيَّ شَيْءٍ آخَرَ حتّى لوْ كانَ اسمَهُ . كان جَشَعُهُ أوْسَعَ وأَعْمَقَ مِنْ بحرِ الرّومِ الذي نُبحِرُ فيهِ الآنَ - جَشَعٌ لمْ يُشْبِعْهُ إقبالُ النّاسِ عليهِ وكثرةُ الأعمالِ في مصبغتهِ التي تحوَّلتْ إلى خَلِيَّةِ نَحْلٍ . ويَبْدو أنَّ التُّرابَ كانَ الشَّيْءَ الوحيدَ الذي يُمكِنُ أَنْ يَملأَ عينَيْهِ . كذلكَ اشتُهِرَ الحمّامُ باسْمِ ‹‹ حمّامِ السُّلْطانِ ›› وليسَ حمّامَ أبي صير ، ولوْ عرَفَ أبو قير هَذهِ الحقيقةَ لَجاءَني منذُ أوَّلِ يومٍ ، لكنَّهُ

عِندَما سَمِعَ بعضُ مماليكِهِ وجواريهِ بأمرِ الحمّام الذي أنشأَهُ الملكُ في المدينةِ ، وأطْنبوا في مدحهِ وذكرِ مزاياهُ – شَوَّقوهُ إليهِ .

« وفي صَباحِ اليومِ التّالي ، لَبِسَ أفْخَرَ ما عِندَهُ مِن الملابسِ ، ثمَّ خَرجَ مِنْ قصرهِ في موكبٍ كبيرٍ ، راكِبًا جَوادًا أصيلاً مُسرَّجًا بالذّهبِ والفِضّةِ ، ومِنْ خَلْفِهِ أكثرُ مِنْ عِشرينَ مَمْلوكًا مِنْ مماليكِهِ عَلى جيادِهِمْ ، و وراءَهُمُ العبيدُ والسُّوّاسُ ، وتوجَّهَ في هَذا الموكِبِ الفَخْمِ إلى الحمّام . فلمّا اقْتَربَ منهُ الْتقطَ أنْفُهُ رائحةَ النَّدِّ والعُودِ والصَّنْدلِ وغيرِها مِنْ أطايبِ البَخورِ ، وشاهَدَ ازدحامَ الأهالي على بابِ الحمّام وتَسابُقَهُم إلى دُخولِهِ .

« ولَمّا رَأوْا موكِبَهُ وعَرَفوهُ ، أوْسَعوا لهُ الطَّريقَ حتّى وَصلَ إلى الْمَدخلِ ، فترجَّلَ هوَ ومماليكُهُ وتَركوا جيادَهُم معَ السُّوّاسِ ، ثمَّ دَخلوا إلى دهليزِ الحمّامِ فَدُهِشَ أبو قير لما شاهَدَ مِنْ فخامةِ البناءِ ، وبَدائعِ النُّقوشِ الذَّهبيَّةِ والزَّخارفِ الفِضّيَّةِ ، والأثاثِ الفاخرِ ، والْمَفْروشاتِ الثَّمينةِ ، ورَوْعةِ التَّنْسيقِ ، واسْتِقبالِ مماليكِ الحمّامِ لَهُ

بالتَّرحيبِ والإجْلال . »

بَدتْ في الأفُقِ بُقَعٌ ضَوْئيَّةٌ ، تومِضُ وتَنْطَفِئُ ، تَتراقَصُ وتَسْكنُ ، فسَكَتَ أبو صير عنِ الكلامِ وعَرَفَ الرُّبّانُ ما يَدورُ بخَلَدِه فأجابَهُ باسِمًا :

« برغْم أنَّنا بَلَغْنا في قِصَّةِ أبي قير معكَ لِقاءً في مُنْتَهى التَّشْويقِ والإثارةِ – فإنَّ طاقَمَ البحَّارةِ الآنَ سَيَسْتَعِدُّ للرُّسُوِّ في ميناءِ حَيْفا التي بَدَتْ أَضْواؤُها عِنْدَ خطِّ الأفُقِ . فَهذِهِ أوَّلُ مَحطَّةٍ لَنا للتَّموينِ بالماءِ وبعضِ أنواعِ الطَّعامِ التي نَفِدَتْ ، ثمَّ الإقلاعِ صَباحَ الغدِ . »

ضَحِكَ أبو صير في سعادةٍ واضِحةٍ قائلاً :

« أخيرًا سَنَقِفُ بأقدامٍ ثابتةٍ على اليابسةِ ! لقدْ مَرَرْتُ معكَ بكلِّ هذهِ الْمَوانِئِ في رحلةِ الذَّهابِ إلى عَكّا ، لكنَّني لَمْ أَحْفَظْ أَسْماءَها ، فَقَدْ شَغَلَني عَنْها خَوْفي مِن الْمَجْهولِ الذي كانَ في انتِظارِنا !»

« أمّا أنا وبحّارَتي فنحْفظُها عنْ ظَهْرِ قلب ، فقدْ مَرَرْنا بها مرّاتٍ لا تُحصى قبلَ أنْ أُعَيَّنَ في مَنْصِبِ قائدِ

أسطول عكّا ورئيس بَحْرِيَّتِها . سنمرُّ بَعْدَ ذلكَ بمَوانئ عَثْليت ، وقَيْصريَّة ، ويافا ، وأُسْدُود ، والْمُجَدَّل ، وغَزَّةَ والعَريشِ ، ودمياطَ ثمَّ الإسكندريَّةِ . »

« لكنَّني أتَذكَّرُ أنَّنا رَسَوْنا عَلى أرْبَعَةِ أوْ خَمْسَةِ موانئَ فقطْ !»

« المرورُ غيرُ الرُّسُوِّ المحكوم بحاجَتِنا إلى الإمْدادِ والتَّموينِ وأحْيانًا حالةِ الطَّقْسِ ، أوِ الإصْلاحِ لا سَمَحَ اللهُ ! ونَظرًا لأنَّ السَّفينةَ لا تَحمِلُ العددَ المعتادَ مِن الرُّكّاب ، فلنْ نَحتاجَ - بإذنِ اللهِ - إلى إمدادٍ وتَموينٍ بمَعنى الكلمةِ ، وأَعْتَقِدُ أنَّنا لَنْ نَرْسُوَ إلا في يافا ثمَّ غَزَّةَ ودُمياطَ ، وأخيرًا الإسكندريَّةِ بالطَّبْعِ ، فقطْ لِفَتراتٍ سريعةٍ للرّاحةِ ورُبَّما التَّأكُّدِ مِن مَتانَةِ الخُيوطِ التي تربُطُ أجزاءَ الشِّراعِ . »

« عَلى بركةِ اللهِ ! بلادُ العربِ دُنْيا لا حُدودَ لَها !»

لم تَعُدْ أضواءُ حَيْفا تَنطَفِئُ أو تَسْكُنُ ، بلْ أَخذَتْ في الاتِّساعِ والانْتِشارِ ، وإنْ كانَتْ مُتناثِرةً وتَفْصِلُ بَيْنَها مِساحاتٌ شاسِعةٌ . وسَرعانَ ما رابَطَ البحَّارةُ ، كُلٌّ في

مَوْقعه : انْهمَكَ ثلاثةٌ مِنْهمْ في طَيِّ الشِّراعِ الكبير ، في حينَ أدارَ أربعةٌ آخَرونَ الشِّراعَيْن الصَّغيريْن لِيَدْفَعا السَّفينةَ صَوْبَ الميناءِ ، و وقَفَ الرُّبّانُ خليفةُ مُمسكًا بعَجَلةِ الدَّفّةِ ، ونظراتُهُ عَلى السّاحلِ الذي سَكَنَتِ الرِّياحُ عليهِ ونامتِ المياهُ إلى جوارِه في نُعاسٍ لمْ يَهُزَّهُ سِوى مُقدِّمةِ السَّفينةِ التي شَقَّتْهُ في ثَباتٍ .

٤

اِصْطَحبَ الرُّبّانُ أبا صير في جولةٍ في دُروبِ حيفا التي كانتِ المدينةَ الثانيةَ التي يَزورُها بَعْدَ عَكّا ، فَشعَرَ أنَّ مدينةَ الإسكندريَّةِ هي حاضِرَةُ العالَمِ وقلبُهُ النابضُ ، وأنَّ المدنَ والموانِئَ المتناثِرةَ على سَواحِلِ بحرِ الرُّوم لا تَزيدُ عَلى أنْ تكونَ مُجرَّدَ أَحْياءٍ في مَدينتِه التي قَتَلَهُ الشَّوقُ والحنينُ إلَيْها . ولم يَغِبْ عَن فِطْنَةِ الرُّبّانِ ما يدورُ داخِلَهُ فجذَبَهُ مِنْ ذراعِه وهوَ يَقولُ لَهُ :

« هيّا بنا إلى السَّفينةِ . . فليسَ هناكَ ما يَسْتَحِقُّ الْمُشاهَدَةَ !

قصتُكَ معَ أبي قير أكثرُ إثارةً وتشويقًا ألْفَ مَرَّةٍ !»

وسَرعانَ ما كانا عَلى مَتْنِ السَّفينةِ التي نَشَرتْ أشْرعتَها وهيَ تُغادِرُ الميناءَ بقوةِ دَفْعِ الأسافينِ التي غرسَها البحّارةُ في قاعِ الميناءِ ، حتّى غادَرَتْهُ إلى عُرْضِ البَحْرِ الذي تألَّقَتْ مياهُهُ تحتَ وَهَجِ شَمْسِ الظَّهيرةِ . وظَلَّ الرُّبّانُ مُمسكًا بعجلةِ الدَّفَّةِ يُديرُها بدقَّةٍ وبَراعَةٍ ؛ حتّى خَرجتِ السَّفينةُ بسلامٍ مِنْ منطقةٍ بَرزتْ فيها قِممٌ صَخْريَّةٌ متناثِرةٌ ، واخْتَفى السّاحِلُ عِنْدَ الأفُقِ ، فتركَ العجلةَ لربيعٍ وذهبَ ليجلِسَ أمامَ أبي صير وقد ارْتَسَمَتْ عَلى وَجْهِهِ ابتسامةٌ مُتسائلةٌ :

« هلْ لَنا أنْ نَعرِفَ الآنَ كيفَ تَمَّ اللقاءُ بَيْنَكَ وبينَ أبي قير ، عندَما جاءَ إلى الحمَّام دونَ أنْ يَعرِفَ أنَّكَ صاحِبُهُ ؟»

أَزاحَ أبو صير حَشْرجَةً عابرةً في حَلْقِهِ ثمَّ قالَ :

« كُنْتُ أُشرِفُ عَلى تَدْليكِ وتَكْبيسِ بعضِ وُجَهاءِ القومِ ، عندما حانَتْ منّي التِفاتَةٌ إلى الجهةِ التي وَقَفَ فيها أبو قير ، فَعرَفْتُهُ في الحالِ وسارَعْتُ إلى استِقْبالِهِ والتَّرحيبِ بهِ ،

فأنَا لا أَحْمِلُ لأحَدٍ ضَغينةً في نَفْسي ، خاصَّةً بَعْدَ أنْ أسْبَغَ عليَّ اللهُ مِنْ فَضْلِه ما لَمْ أكُنْ أَحْلُمُ بهِ في أكثرِ أَحْلامي سَعادةً . وبرغْمِ ذلكَ فإنَّ أبا قير عندَما عَرَفَ أنَّني صاحِبُ حمَّامِ السُّلْطانِ ، فَضَحَتْهُ نَظراتُهُ التي نَضَحتْ بوميضِ الحَقدِ الأسْودِ ، والتي عادَتْ لِتمسحَ الأرجاءَ الفخيمةَ والفاخِرةَ للحمّام ، ثمَّ في لحظةٍ أَخْفَى ما بداخِلهِ وتَصَنَّعَ النَّشْوةَ بلقائي ، وانهالَ عليَّ بالعِناقِ والقُبُلاتِ والتَّحيّاتِ ، والتَّمنياتِ الحارَّةِ بالمزيدِ مِن التَّوفيقِ والنَّجاحِ الباهِرِ ، والتَّساؤُلاتِ الحَميمةِ بصوتٍ مُتهدِّجٍ :

« ‹‹ كيفَ تكونُ هُنا عَلى مَقْرَبةٍ مِن مَصْبَغَتي وقَصْري ولا تَزورُني ؟ هلْ نَسيتَ ما بيننا مِن الزَّمالةِ والصَّداقةِ ؟ إنَّني ، واللهِ ، قَدْ تَعِبْتُ مِنْ طُولِ بَحْثي عَنْكَ ، وقدْ كَلَّفْتُ مَماليكي أنْ يَسْألوا عَنْكَ في جميعِ الخاناتِ بالمدينةِ فلمْ يَعْثروا عَلى أيِّ أثرٍ لكَ ، ولِذلكَ تَنغَّصَتْ مَعيشَتي ، وتَكَدَّرَ خاطِري ، ولمْ أَجِدْ أيَّةَ لَذَّةٍ في كُلِّ ما حَصَلْتُ عليهِ مِنْ ثَراءٍ وجاهٍ ؛ لأَسَفي ولَوْعَتي لفِراقِكَ !››



« عندئذٍ لَمْ أَحْتَمِلْ كُلَّ هذا الزَّيْفِ والخداعِ المَفْضوحِ ؛ فتساءَلْتُ بدَوْري بلهجةٍ فيها مِن المرارةِ والسُّخْرِيَةِ الكثيرُ :

« ‹‹ أ لمْ تَعْرِفْني ، يا أخي ، حينَما جئْتُ إليكَ في المصْبَغَةِ ، فاتَّهمْتَني بأنَّني لِصٌّ حاولَ سَرِقَةَ الأقْمِشَةِ منْها ، وضَرَبْتَني حتّى كِدْتَ تَقْتُلُني ، ثمَّ هَدَّدْتَني بضربِ عُنُقي إنْ عُدْتُ إلى المصبغةِ بَعْدَ ذلكَ ؟››

« لكنَّهُ تَحوَّلَ إلى إنسانٍ آخَرَ ذاهِلٍ وحائرٍ للغاية :

« ‹‹ ما هَذا الذي تَقولُهُ يا أخي ؟ لا بُدَّ أنَّكَ جُنِنْتَ ! كيفَ تَقْوى يَدَيَّ عَلى ضَرْبِكَ وأنتَ أعزُّ عليَّ مِنْ نَفْسي ؟ لوْ حدثَ هَذا لكنتُ قدْ قَطعتُها وألْقَيْتُ بها في النّارِ الْمُحرِقةِ !››

« ثمَّ أَخذَ يَحلِفُ أَغْلظَ الأيْمانِ ؛ مؤكِّدًا أنَّهُ لمْ يَرَني مُنْذُ تركَني نائمًا في الخانِ ، وتاهَ بعدَها في دُروبِ عكّا وأزِقَّتِها ولمْ يَعرفْ كيفَ يَعودُ إلى الخانِ مرَّةً أخْرى ! لكنَّهُ ظَلَّ يَبحثُ عنِّي بعدَ ذلكَ حتّى يَئِسَ مِن العثورِ عليَّ . ثم انْفجَرَ في البُكاءِ وهو يُعانِقُني ويُقَبِّلُني صائِحًا حتّى يَسْمعَ

كُلُّ مَنْ في الحمّامِ صوتَهُ :

« ‹‹ إنَّ هَذا اليومَ أحسنُ عِندي مِنْ أيِّ عيدٍ !›› »

« لمْ أجدْ بُدًّا مِنْ مبُادلَته العِناقَ والتَّقْبيلَ وصوتٌ داخلي يَهمِسُ : عفا اللهُ عمّا سَلَفَ ! وسَرعانَ ما طَغتْ عليَّ طبيعتي وأَخَذْتُهُ وأَجْلَسْتُهُ بجانبي ، بَلْ وبالَغْتُ في إكرامِهِ وهوَ يَرْوي لي ما جَرى لَهُ مِنْ أوَّلِهِ إلى آخِرِهِ ، ثُمَّ أدْخَلْتُهُ الحمّامَ وأَوْصَيْتُ المماليكَ بخدمتِهِ كَما يَخدُمونَ الملكَ وزيادةً . وبَعْدَ ذلكَ ودَّعْتُهُ بأَحْسنَ مِمَّا اسْتَقْبَلْتُهُ بهِ ، واصْطَحَبْتُهُ حتّى خرجَ مِن الحمَّام ورَكِبَ معَ مَماليكِهِ راجِعًا إلى قَصْرِهِ ، بَعْدَ أن اتَّفَقْنا عَلَى التَّزاوُرِ لتجديدِ الوُدِّ وتأكيدِ المحبَّةِ مِنْ حينٍ إلى حين . »

تَساءَل الرُّبّانُ خليفةُ بعدَ نظرةٍ سريعةٍ إلى الأَصْطُرْلابِ المثبَّتِ أسفلَ الصّاري العالي ؛ للاطمئنانِ عَلى مَسارِ السَّفينةِ :

« ما الذي جعلكَ تَنْقادُ لألاعيبِهِ مَرَّةً أُخْرى ؟ »

« الطبعُ يَغْلِبُ التَّطبُّعَ . . فقدْ قُلْتُ في نَفْسي : لقدْ

أصْبحَ كُلٌّ مِنّا ثريّا ، ولمْ يَعُدْ هناكَ مجالٌ للحقدِ أوْ حتّى التّنافُسِ ! بلْ إنَّني اعترفْتُ لهُ بأنّني اسْتَفَدْتُ مِن تَجْربتِه معَ الوالي الذي أنْشأَ لهُ المصبغةَ ، وكَرَّرْتُ معَهُ نفسَ المحاولةِ ؛ فأنْشأَ لِيَ الحمّامَ الذي كانَ بدايةَ الخيرِ كُلِّه ، واعتبرْتُ هَذا فضلاً مِنْهُ عليَّ ؛ فَأَبْدى خَجلَهُ وتواضُعَهُ ورغبتَهُ الحارقَةَ في أنْ يُسبغَ عليَّ فضلاً آخَرَ عندَما ذكَّرني بدواءٍ ، كنتُ أصنعُهُ وأَسْتَخْدِمُهُ في حمّامِ الإسكندريةِ ؛ لإزالةِ الخشونةِ أو الجفافِ الذي يمكنُ أن يُصيبَ الجلدَ ، خاصَّةً عند الكوعِ والرُّكبةِ والكعبِ . وهو عبارةٌ عنْ مَرْهمٍ مِن القِشدةِ والدُّهنِ والزِّرنيخِ والجيرِ . كَما ذكَّرني بأنَّهُ في الإسكندريَّةِ ذاتَ مرَّةٍ طلبَ منّي أنْ أَصْنَعَهُ لهُ ، فظَنَنْتُ أنَّهُ يُعاني مِن خُشونةِ الجلْدِ وجفافِه ، لكنَّهُ خَشِيَ أنْ يُصارحَني بأنهُ أُصيبَ بمرضِ الحِكَّةِ والهَرْشِ ؛ حتّى لا أَهْجُرَهُ خوفًا مِن عَدْوَى الجرَبِ ، وعندما اسْتَخْدَمَهُ بنفسِهِ شُفِيَ تمامًا في يومٍ واحدٍ ، وكانتْ نتيجتُهُ الباهِرةُ سِرًّا احتفظَ به لِنفسِه ، وقدْ آنَ الأوانُ للإفضاءِ به كيْ يُؤكِّدَ حُبَّهُ العميقَ لي ، وكَيْ يَجعلَ عَملي في الحمّامِ

كاملاً مِنْ جَميعِ الوُجوهِ . صحيحٌ أنَّ أعراضَ الحِكَّةِ والهرشِ قَلَّتْ بكثيرٍ بَعْدَ إقبالِ أهالي عَكًّا عَلى الاستحمامِ الْمُنْتَظِمِ ، لكنَّها لا تزالُ تَظهرُ بينَ حينٍ وآخَرَ . ولا بُدَّ أنَّ الوالِيَ الذي يُعاني هوَ نفسُهُ مِن آثارِها المتبقِّيةِ ، سَيَغْتَبِطُ كُلَّ الاغْتِباطِ عِندَما أُقَدِّمُهُ لهُ لِيكونَ أوَّلَ مَنْ يُجَرِّبُهُ ، فتَزْدادُ مَكانتي عِندَهُ ، ويَجْزيني أحْسَنَ الجزاءِ . »

صَمَتَ أبو صير ليُمَتِّعَ عَيْنَيْهِ بوميضِ الشَّمسِ الذَّهبيِّ ، الذي اخترقَ السَّطْحَ الشفَّافَ لِلمياهِ الزَّرقاءِ المتماوِجةِ في دَلالٍ ، فسأَلَهُ ربيعٌ :

« وماذا كانَتِ النَّتيجةُ ؟ يَبْدو أنَّ حُسْنَ ظَنِّكَ بهِ لمْ يكنْ في مَحلِّهِ ، وإنْ كُنْتُ أتَمنَّى أنْ يكونَ في مَحلِّهِ ! »

عَبَرتْ وَجْهَ أبي صير سَحابةٌ مِن الكآبةِ وهوَ يُجيبُهُ بسؤالٍ آخَرَ : « ماذا أَفْعلُ بِنَفْسي التي تَتمنَّى دائِمًا أَنْ يُصبِحَ كُلُّ النّاسِ أخيارًا وطَيِّبينَ ؟ فَجْأَةً وَجَدْتُ نَفْسي وَجْهًا لِوجْهٍ معَ حُكْمٍ بالموتِ لا رَجْعةَ فيهِ ! »

لمْ يمنعْ أحدُ البحّارةِ نفسَهُ مِنْ أنْ يَشهَقَ ويَتَساءَلَ :

« كيفَ باللهِ عليكَ ؟»

« جاءَني الوالي ومعهُ بعضُ أعوانِهِ ، وسارعْتُ إلى استقبالِهِ بكلِّ إجْلالٍ وتَرحيبٍ كالعادَةِ ، وسَرعانَ ما أَعْدَدْتُ لهُ ولِمَنْ مَعَهُ مَقاصيرَهُمُ الفَخْمةَ بالحمّام ؛ إذْ إنَّهمْ جاءوا في غيرِ ميعادِهِمْ . وتولَّيْتُ بنَفْسي خِدْمَةَ الوالي وتَدْليكَهُ وتكبيسَهُ وتَبْخيرَهُ ، لكنَّني لاحَظْتُ هذهِ المرَّةَ أنَّهُ كانَ يُراقِبُني خُلْسَةً ، وأبْدى اهْتِمامًا شَديدًا بكلِّ حَرَكاتي وتَصرُّفاتي وأَقْوالي ، ولَمْ يَزلْ كذلكَ حتَّى انْتهى مِن الاستحمام ، وكُلُّ مَخايلِ الطُّمأنينةِ والارتياحِ تُومِضُ في عَيْنَيْهِ . عِنْدئذٍ أردْتُ أَنْ أُضاعِفَ مِن سعادتِهِ فأسْرَعْتُ بتَقْديمِ عُلْبةٍ فِضِّيَّةٍ جَميلةِ الصُّنْعِ ، وفَتَحْتُها أمامَهُ قائلاً في وَلاءٍ لا شَكَّ فيهِ :

« ‹‹ هَذا ، يا مَوْلايَ ، دواءٌ عجيبُ الأثرِ ، يَكفي دَهْنُ الجسمِ بهِ مرَّةً واحِدةً لإزالَةِ كُلِّ ما فيهِ مِنْ آثارِ الهَرْشِ أوْ بَقايا الحِكَّةِ ، وبذلكَ تتخلَّصُ عَكّا كُلُّها مِنْ هذهِ الْمُعاناةِ التي أقْلَقَتْ مَضاجِعَها !››

« فلمّا سَمِعَ الوالي وهوَ يتفحَّصُ الدِّهانَ بنظراتِه الثّاقبةِ ، تَجهَّمَ وَجْهُهُ وتَمَلَّكَهُ الغَضبُ الشَّديدُ ، عِندَما شَمَّ لهُ رائحةً كَريهةً ، وأَصْبحَ أَسَدًا يُزَمْجِرُ بِرغمِ مُحاولتِهِ لِكَتْمِ غَيْظِهِ وغَضَبِهِ :

« ‹‹ هلْ أَعْطَيْتَ أحَدًا هَذا الدَّواءَ قَبْلي ؟››

« أَجَبْتُهُ والرُّعْبُ يَزْحَفُ عَلى شَفَتيَّ برعشةٍ مَريرةٍ :

« ‹‹ لمْ أُعْطِ أحدًا شَيْئًا مِنهُ بَعْدُ ، لأنِّي رَأيتُ أنْ يَكونَ مَوْلايَ أولَ مَنْ يَنْتَفِعُ بهِ !››

« عِندئذٍ انفجرَ الوالي صارخًا كَهَزيمِ الرَّعْدِ في الليلةِ الظَّلْماءِ : ‹‹ اِخْسَأْ ، أَيُّها الجاسوسُ الملعونُ ! أ هَذا جزاءُ ما قدَّمْنا لكَ مِن معروفٍ وإحسانٍ ؟!››

« ثمَّ صاحَ بِأعوانهِ قائلاً وهو يُشيرُ إليَّ :

« ‹‹ اِقْبضوا عَلى هَذا الخائِنِ ، وخُذوهُ إلى الدّيوانِ لِمُحاكمتهِ والاقْتِصاصِ مِنهُ ؛ فلا بُدَّ أَنْ يموتَ الثُّعبانُ بسُمِّهِ !››

« وغادَرَ الحمَّامَ كالعاصِفةِ معَ أعْوانِه قاصِدًا إلى



الدّيوانِ ، وقدْ أَذْهَلتْني الْمُفاجأةُ الصّاعِقَةُ ، وانعَقَدَ لِساني مِن الرُّعْبِ والهَلَعِ ، واقْتادَني الحرّاسُ إلى مَصيرٍ رَهيبٍ لا أَعْرِفُ لهُ سببًا ، والأهالي في الطَّريقِ يَتساءَلونَ في دَهْشَةٍ وذُهولٍ عَمّا دَعا إلى غَضَبِ الوالي فَجْأَةً عليَّ. وبَكى كثيرٌ مِنهُمْ شَفَقةً عليَّ وخَوْفًا عَلى حَياتي ، لأنَّهمْ لمْ يَرَوْا مِنّي سِوى كُلِّ خَيْرٍ ، فأحَبَّني كُلُّ مَنْ عَرفَني .



وما إنْ وصلَ الوالي إلى الدّيوانِ ، حتّى أمَرَ بإحْضاري بينَ يَدَيْهِ وسَألَني : ‹‹ هَلْ صَنَعْتَ هَذا الدَّواءَ ؟›› وأَجَبْتُهُ وكُلُّ عَضَلاتِ جِسْمي تَنْتَفِضُ : ‹‹ نَعمْ يا مَوْلايَ . أنا الذي صَنَعْتُهُ !››

« ‹‹ كيفَ صَنَعْتَهُ؟ ولماذا كانَتْ لهُ رائِحةٌ كريهةٌ ؟››

« عِندئذٍ ارتاحَ بالي قليلاً لأنَّني ظَنَنْتُ أَنَّني أَخْطَأْتُ

بعدم التَّفكيرِ فيما يُذْهِبُ هَذهِ الرّائحةَ ، وهو خطأٌ يُمكنُ إصْلاحُهُ ؛ فَقلتُ :

« ‹‹ ربَّما كانَ عُذْري ، يا مَوْلايَ ، أَنّني صَنَعْتُهُ كَما يُصْنَعُ في بلادِنا مِنَ القِشْدَةِ والدُّهْنِ والزِّرْنيخِ والجيرِ ، ولوْ أَنّني قَدَّرْتُ أَنَّكَ سَتَغْضَبُ وتَنْفرُ مِنْ هَذهِ الرّائحةِ ، ما قَدَّمْتُهُ لكَ إلا بَعْدَ تَخليصِهِ منها !››

« ظَنَنْتُ أنَّ الفَرَجَ قريبٌ ، لكنَّ كلامَ الوالي الْمَريرَ والسّاخِرَ كانَ مِطْرقةً عَلى أمِّ رَأْسي ، فَقَدْ قالَ :

« ‹‹ الحمدُ للهِ الذي جَعلَ تِلكَ الرّائحةَ الكَريهةَ تَنِمُّ على غَدْرِكَ وخِيانَتِكَ !›› ثمَّ الْتَفَتَ الوالي إلى أعوانِهِ وصاحَ بِهِمْ كَهديرِ الطُّوفانِ :

« ‹‹ أَحْضِروا الرُّبّانَ فَورًا !›› »

نَظرَ البحّارةُ إلى الرُّبّانِ خليفةَ في تَساؤُلٍ صامِتٍ مُلحٍّ ، فَما كانَ مِنه سِوى أنْ قالَ :

« نَعمْ . . أنا هوَ الرُّبّانُ الْمَقصودُ . . عِندَما لَبَّيْتُ الأمْرَ

وحَضرْتُ صاحَ بِيَ الوالي بِكلماتٍ كضَرباتِ السَّيْفِ وهوَ يُشيرُ إلى السَّيِّدِ أبي صير :

« ‹‹ هَذا الخبيثُ كانَ يُريدُ قَتْلَنا بالزِّرنيخِ والجيرِ ، ويَجبُ أنْ يكونَ جَزاؤُهُ مِن جنْسِ عَمَلِه ، ولِهَذا آمُرُكَ بأنْ تَضعَهُ الآنَ في كيسٍ كبيرٍ مَتينٍ ، وتَضَعَ مَعَهُ فيهِ قَنْطارَيْنِ مِن الجيرِ الحيِّ ، ثمَّ تُلقِيَ الكيسَ بما فيهِ في ماءِ البحرِ ، فيموتَ هَذا الخائنُ غَريقًا مَحْروقًا في وقتٍ واحدٍ !››

« وفي الحالِ لَبَّيتُ أمْرَهُ ، وأخَذْتُ السَّيِّدَ أبا صير وكانَ لا يَزالُ مُقَيَّدًا لكيْ يُنَفَّذَ فيهِ الحُكمُ !»

الْتفتَ ربيعٌ إلى الرُّبّانِ الذي ألقى بنظرةٍ سريعةٍ إلى الأَصْطُرْلابِ وأضافَ قائلاً لبحّارتِهِ :

« أرى وَميضَ الشَّوقِ الْمُتسائِلِ في عيونِكمْ ، لكنْ قَبْلَ أنْ أقُصَّ عليكُمْ قِصَّتي معَ السَّيِّدِ أبي صير ، أريدُ منكُمْ أوَّلاً تَحْريكَ الشِّراعِ الكبيرِ عِشرينَ درجةً تُجاهَ الغَرْبِ بَعيدًا عَن الجُزُرِ الصَّخْرِيَّةِ التي سَنَمُرُّ بها ، ولَنْ

يَسْتَغْرِقَ الأمرُ أكثرَ مِنْ ساعةٍ ، بَعْدَها نَعودُ لشفاءِ غليلِكُم لمعرفةِ السِّرِّ في هَذهِ المفاجآتِ والانْقِلاباتِ التي لا تَرْحَمُ ولا تَنْتَهي !»

انتشرَ البحّارةُ عَلى سطحِ السَّفينةِ ، كُلٌّ في مَوْقِعِهِ ، في حينَ جالَ أبو صير ببصرِهِ حتّى اصطدمَ عندَ خَطِّ الأفُقِ ، فلمْ يرَ أيَّةَ جُزُرٍ صَخْرِيَّةٍ ، وتَعجَّبَ لِمهنةِ الملاحةِ التي تُمكِّنُ رَجُلاً مِثْلَ الرُّبّانِ خليفةَ مِنْ أَنْ يَرْصُدَ مَوْقِعَ هَذهِ الجزُرِ الصَّخْرِيَّةِ في هَذا الفَضاءِ الأزْرَقِ اللانهائيِّ دونَ أنْ يَراها مَرْأى العَيْنِ ، في حينَ عَجَزَ هوَ عَنْ رَصْدِ مُؤامَراتِ ودَسائِسِ أبي قير الذي تمنَّى أنْ يَضرِبَهُ ضربةً قاضِيةً ، تُلْقي بهِ في أعْماقِ البحرِ بلا رَجْعَةٍ .

٥

عَبَرتِ السَّفينةُ منطقةَ الجُزُرِ الصَّخْرِيَّةِ ، وتَحرَّكَ الشِّراعُ الكَبيرُ مَرَّةً أخْرى لِيَمتلئَ بالرِّيحِ ويَنْطَلِقَ بالسَّفينَةِ مارًّا بميناءِ عَتْليت نحوَ قَيْصَرِيَّةَ ، دونَ أنْ يَظْهرَ شَيْءٌ مِن هَذهِ

الْمُدُنِ الْمُخْتَفِيةِ وَراءَ الأفُقِ . وتَركَ الرُّبّانُ عَجلةَ الدَّفَّةِ لِربيع وجَلَسَ إلى جوارِ أبي صير في مُواجَهةِ نَظَراتِ البحّارةِ الْمُتسائلةِ في شوقٍ بالغٍ ، وابْتَسَمَ قائلاً :

« ما سَوْفَ أَقُصُّهُ عرفْتُهُ مِنَ الوالي شخصيًا وبالتَّفْصيلِ الْمُثيرِ ، الذي لمْ يكنْ يَخْطِرُ ببالِ السَّيِّدِ أبي صير نَظَرًا لنيَّته الحسَنةِ الزّائدةِ عَلى الحدِّ !»

ضَحِكَ أبو صير في مَرحٍ ساخرٍ :

« تَقْصِدُ نيَّتي الحَسنةَ التي بَلغَتْ حَدَّ الغَفْلَةِ ؟»

شارَكَهُ الرُّبّانُ الضَّحِكَ لكنَّ البحّارةَ كانوا عَلى أحَرَّ مِنْ جَمْرٍ ، واسْتَمَعوا إليه وهو يَقولُ :

« العفوَ ، يا سيِّدُ أبو صير ! الحياةُ كلُّها دُروسٌ ! المهمُّ أنَّ أبا قير بَعْدَ لِقائه بالسَّيِّد أبي صير في الحمّام ، تَوجَّهَ عَلى الفَوْرِ إلى قصرِ الوالي ، وطلبَ مُقابَلتَهُ في خَلْوةٍ لأمْرٍ خطيرٍ خاصٍّ . وسَرعانَ ما تَمَّتِ الْمُقابلةُ التي بَثَّ فيها أبو قيرٍ بكُلِّ سُمِّهِ :

« ‹‹ إنَّني ما جِئْتُ لمقابلةِ مَوْلانا إلا لأمرٍ جَلَلٍ عظيم ،

وخَطر جَسيم رَأَيْتُ مِنْ واجبي أَنْ أَنَبِّهَكَ إليه ، لِكَيْ أُدَلِّلَ عَلى أنِّي أَحْفظُ الجَميلَ ، ولا أتأَخَّرُ عن التَّضحيةِ بأعزِّ صَديقٍ لي في سَبيلِ إنقاذِ حياتِكَ الغاليَةِ ! هَذا الصَّديقُ العَزيزُ ، يا مَوْلايَ ، هوَ الرَّجلُ الذي أنشأَ الحمَّامَ بمُساعَدتِكَ لهُ في المدينةِ ، والذي كانَ زَميلاً لي في الأَسْرِ عِنْدَ مَلكِ الْمَجوسِ . وقد اتَّفقَ مَعَهُ هَذا الملكُ عَلى أَنْ يَحضُرَ إلى عكَّا ويَحْتالَ لِقَتْلِكَ انْتقامًا لِلْهزائِمِ الْمُتلاحِقَةِ التي أَنْزَلْتَها بجُيوشِهِ . وبناءً عَلى هَذا الاتِّفاقِ حَضرَ ذلكَ الرَّجلُ إلى هُنَا وأقْنَعَكَ بإِنْشاءِ الحمَّام ، وجَعَلَكَ تَترَدَّدُ عَليهِ وأَنْتَ مُطْمئِنٌّ مَسْرورٌ ، إلى أنْ تَحينَ الفُرصةُ لِتنفيذِ المؤامَرةِ الغادِرةِ . وقَدْ عَلِمْتُ ، يا مَوْلايَ ، أَنَّ موعِدَ التَّنفيذِ لمْ يَبْقَ عَليهِ إلا يومٌ أَوْ يومانِ ، وقَدْ أَعَدَّ أبو صير صاحِبُ الحمّام وجاموسٌ ملكُ الْمَجوسِ ، سُمّا قاتِلاً زُعافًا عَلى هَيئةِ دِهانٍ يَعْتزِمُ تَقْديمَهُ لكَ ، باعْتبارِ أَنَّهُ دواءٌ للتَّخلُّصِ نهائيًا مِن الآثارِ المتبقِّيَةِ مِن الهَرشِ والحِكَّةِ ، كَما يَعْتَزِمُ تَقديمَهُ للأمراءِ والوُزراءِ والقُوّادِ والعُلماءِ ، فلا تَمْضي أيّامٌ بَعْدَ ذلكَ حتّى يَتِمَّ لهُ ما أرادَ – لا قَدَّرَ اللهُ – ويكونَ في خِلالِ ذلكَ قَدْ هَربَ ورَجَعَ إلى مَلكِ

الْمَجوسِ لِيُبشِّرَهُ بنجاحِ حيلتِهِ ويَحْصُلَ عَلى الثَّمنِ !››

« فلمّا سَمِعَ الوالي كلامَ أبي قير وقدْ أخَذَ منهُ العَجبُ والخوفُ كُلَّ مَأْخَذٍ ؛ حاوَلَ أنْ يَتأكَّدَ مِنْ صِدْقِه أَوْ كَذِبه فقالَ :

« ‹‹ لكنِّي أكرمْتُ هَذا الرَّجُلَ كُلَّ الإكْرام ، فأَنْشَأْتُ لهُ ذلكَ الحمّامَ ، وهوَ يَربَحُ مِنهُ أمْوالاً طائلةً ، ما أظُنُّ أنَّ مَلِكَ الْمَجوسِ يُعطيهِ مِثْلَها ، أوْ يَجْعَلُ لهُ مَكانَةً في مَمْلَكَتِه مِثْلَ المكانةِ التي لهُ عِنْدَنا ، فكيفَ يَرْضى أنْ يَقومَ بهذهِ الْمُؤامَرَةِ الدَّنيئَةِ ويَحْرِمَ نَفْسَهُ مِن النِّعمةِ العظيمةِ التي هوَ فيها ؟ كَما أَنَّني عاشَرْتُهُ واخْتَبَرْتُ أخلاقَهُ فوجَدْتُهُ رَجلاً طيِّبَ القَلْبِ ، كريمَ الأخلاقِ ، لا يَعرفُ الْمَكْرَ والغَدْرَ ، بلْ يَحرِصُ عَلى تَقْوى اللهِ ويُحسِنُ مُعاملةَ النّاسِ جميعًا !››

« لكنَّ أبا قير واصَلَ بَثَّ سُمِّهِ بلا هَوادَةٍ :

« ‹‹ إنَّني أَعْرَفُ بهِ ، يا مَوْلايَ ! والواقعُ أنَّهُ أَخْبَثُ مِن إبْليسَ ! لكنَّهُ يَتظاهَرُ بالطِّيبَةِ والإخْلاصِ لِكيْ يُحقِّقَ هدفَهُ الدَّنيءَ ، لأنَّهُ مُضْطَرٌّ إلى ذلكَ لإنقاذِ زوجتِهِ وأبنائه

مِن أسْرِ مَلكِ المجوسِ لهُمْ ، و قد اتَّفَقَ معَ الملكِ عَلى هذه الصَّفْقَةِ : أَنْ يُطلِقَ سَراحَ أُسْرَتِه ويَمْنَحهُ مُكافَأةً عَظيمةً هيَ جَعْلُهُ وزيرَهُ الأكبرَ ، وذلكَ مُقابِلَ قَتْلِكَ معَ أكابرِ ولايتِكَ التي سَيغْزوها الملكُ ويَسْتولي عَليها ويَضُمُّها إلى مَمْلكَتِه مَتى نَجَحتِ المؤامَرَةُ !››

« سألَهُ الوالي وهوَ يكادُ يَنْفَجرُ كَمَدًا :

« ‹‹ وماذا سَيكونُ عِقابُكَ لوْ ثَبتَ كَذِبُكَ وخِداعُكَ ؟››

« ‹‹ أَحْرِقْني ، يا مَوْلايَ ، في الجيرِ الحيِّ وأَلْقِني في قاعِ البحرِ ؛ حتّى أموتَ مَحْروقًا غَريقًا جزاءَ كَذِبي عَلى مَوْلايَ !››

« ‹‹ لا ، لَنْ يَحدُثَ هَذا عَلى الإطْلاقِ ، فقدْ أَرَدْتُ فقطْ أَنْ أعرفَ مَدى وَلائِكَ لي . عُمومًا ، جَزاكَ اللهُ عنَّا خَيْرًا ، وسَوْفَ لا نَنْسى لَكَ أبدًا إخْلاصَكَ ومُروءَتَكَ ، ولكنْ يَجبُ أنْ يكونَ الأمْرُ سِرًّا بَيْننا إلى أنْ أَذْهبَ بِنَفْسي إلى الحمَّامِ وأَقْطَعَ الشَّكَّ باليَقينِ ، ومَتى قَدَّمَ لي أبو صير ذلكَ الدِّهانَ الْمَسْمومَ ، فلنْ أَسْتَعْمِلَهُ ، بَلْ سَأَقْبِضُ عَلى ذلكَ الجاسوسِ الخائنِ الحقيرِ وأَقْتُلُهُ شَرَّ قِتْلةٍ ، ثُم أُمثِّلُ

بجثّته ليكونَ عِبْرةً لكُلِّ مَنْ تُحدِّثُهُ نفسُهُ بالغَدْرِ والخيانَةِ !›››

واصَلَ الرُّبّانُ خليفةُ حَديثَهُ وهوَ يَتبادَلُ معَ أبي صير نَظراتٍ طافحةً بالمشاعرِ الْمُتلاطمةِ والأحاسيسِ الأليمةِ :

« لمْ أكُنْ أتَصوَّرُ أبَدًا أنَّني سأكونُ الْمَنوطَ بإعدامِ السيدِ أبي صير . ويَبْدو أنَّ هَذا الحُكمَ البَشعَ قد استَوحاهُ الوالي مِن حَديثِ أبي قير معَهُ . وعِندَما اقْتَدْتُ السَّيِّدَ أبا صير لتنفيذِ الحُكْمِ ، بَعْدَ أنْ قرَّرَ الوالي أنْ يُتابعَهُ بنَفْسِه مِنْ سَفينتهِ الخاصَّةِ ، بَكى أبو صير في حُزنٍ دَفينٍ دونَ أنْ يُدافعَ عَنْ نَفْسِه بكلمةٍ واحدةٍ ، لكنَّني كُنتُ مُؤْمِنًا في قَرارةِ نَفْسي ببراءَتِه ، فقدْ عَلَّمني البَحرُ كَيْفَ أعْرِفُ مَعادِنَ البَشَرِ عَلى حَقيقتِها ، فكَيْفَ لا أعرِفُ مَعْدَنَ صَديقِيَ الحَقيقِيِّ الذي خَبَرْتُهُ في لِقاءاتٍ وجَلساتٍ متكرِّرةٍ ، سَواءٌ في الحمّامِ أوْ في البَيتِ ؟»

لَمعَتِ الدُّموعُ في عيْنَيْ أبي صير وقدْ تَهدَّجَ صوتُهُ وهو يقولُ :

« لَنْ أنْسى فضلَكَ عليَّ ما حَييتُ ! كيفَ أنْسى إنقاذَكَ لِحياتي عِندَما اصْطَحَبْتَني سِرًّا تحتَ جُنْحِ الظَّلامِ إلى

مِنطقةٍ ساحِليَّةٍ نائِيةٍ ، وأَلْبَسْتَني ملابسَ صَيَّادٍ كَيْ أعْملَ صيَّادًا هناكَ إلى أنْ يحينَ مَوعِدُ إبْحاركَ في مهمةٍ جديدةٍ فَتأخُذَني في سفينتِكَ متخفِّيًا ، حتى أَرْجعَ إلى بلادي ؟»

قاطَعهُ الرُّبَّانُ في رِقَّةٍ :

« إنَّما الفَضْلُ فَضْلُ اللهِ الذي أَلْهَمني بمَلْءِ كيسٍ كبيرٍ مَتينٍ بالجيرِ ، ثمَّ أحْكَمْتُ إغلاقَهُ ، وحملَهُ بَحَّارتي عَلى السَّفينةِ التي أبحَرْنا بها إلى عُرضِ البحرِ ، وخَلْفَنا كانَ الوالي عَلى سَفينتِه يُتابعُ تنفيذَ الحُكْم . لكَنَّ الشَّيْءَ الذي أَدْهَشَني أَنَّ سَفينتَهُ عادَتْ قبلَ أنْ نُلْقِيَ الكيسَ في البحرِ ، وظَنَنْتُ أنَّ لَسْعَةَ نَدم ربَّما تكونُ قدْ أصابَتْهُ ، فأسْرَعْنا بِإلقاءِ الكيسِ الذي غاصَ مُحدِثًا دُوّامَةً تابَعَها البحّارةُ بعُيونٍ حَزينةٍ ! ثمَّ رَجَعْتُ إلى قَصْرِ الوالي لأُخْبِرَهُ بإتْمامِ المهمَّةِ ، لكنَّني وَجَدْتُهُ جالِسًا بينَ الأُمراءِ والوُزراءِ وقُوّادِ الجَيْشِ وهوَ في حالةِ غَمٍّ عظيمٍ ، وكُلُّهُم مُطْرِقونَ مِثْلَهُ وقَدْ خَيَّمَ السُّكونُ والوُجومُ عَلى الجميعِ .

« وعِندَما أَخَذْتُ مَجلِسي بينَهُم ، سَأَلْتُ الجالِسَ إلى جِواري عَن سَبَبِ غَمِّ الوالي وحُزْنِه ، فَعَلِمْتُ أنَّ الواليَ

وهوَ يُتابعُ عمليَّةَ إلْقاءِ الكيس ، كانَ يُشيرُ إليهِ بيدهِ ، فسقطَ منها خاتَمُه السِّحْريُّ و وقعَ في البحر . عندئذٍ عَرَفْتُ جسامَةَ مُصابه الأليم ؛ لأنَّ ذلكَ الخاتَمَ كانَ السَّببَ في انتصاراته عَلى جَميعِ أعدائه وخُصومه ، خاصَّةً المجوسَ ، وكانَ أَنْفعَ لهُ مِنَ جَيْشٍ عظيم ، إذْ إنَّ فيهِ سِحْرًا قَديمًا مرصودًا عَلى هيئةِ شُعاعٍ يَخْرُجُ مِنْ فَصِّه ، وكانَ يَكفي تَوْجيهُ هَذا الشُّعاع إلى أيَّةِ فِرقَةٍ أو كَتيبةٍ مِن الجُنودِ فَيصرعُها فورًا عن بَكْرةِ أبيها . عِندئذٍ نَهضْتُ ووَقَفْتُ بينَ يَدَيْهِ قائلاً :

« هلْ يَأْذَنُ لي مَوْلايَ في البحثِ عَن الخاتَمِ السِّحْريِّ المَفقودِ في البحرِ بواسِطةِ الغوّاصينَ والبحَّارةِ ؟»

« رفَعَ الوالي رَأْسَهُ وقالَ كلماتٍ تَقْطُرُ أَسًى ومَرارةً :

‹‹ لا فائدةَ مِنَ البحثِ عنِ الخاتمِ ، لأنَّني رأيتُهُ عندَ سقوطهِ في البحرِ ، وتَحقَّقْتُ أنَّهُ لمْ يقَعْ في الماءِ بَلْ تَلقَّفَتْهُ سمكةٌ كبيرةٌ قَفَزتْ إلى سَطْحِ المياهِ بجوارِ سَفينتي في نَفْسِ اللَّحظَةِ ، ثُمَّ انْطلقَتْ به إلَى عُرضِ البحرِ !››

« عِندئذٍ قُلْتُ في نَفْسي : ‹‹ تُقدِّرونَ فتَضْحَكُ

الأقدارُ !››

« وتَعجَّبَ الحاضِرونَ وأخَذوا يُعزُّونَ الواليَ ويُحاوِلونَ التَّرْفيهَ عنهُ ، لكنَّهُ قالَ :

« ‹‹ يَظْهرُ ، واللهُ أعلمُ ، أنَّ ذلكَ الرَّجلَ الذي أَمَرْتُ بقَتْلِه وحَرْقِهِ لمْ يَكُنْ يَستَحِقُّ ذلكَ العِقابَ ، وأَنَّ ضَياعَ الخاتَم كانَ عِقابًا لي عَلى الانْتِقامِ مِنهُ بتلكَ الطَّريقةِ الوحْشِيَّةِ !››

« ولَمْ يَستَطِع الوالي مواصَلةَ الجلوسِ في الدّيوانِ بَعْدَ ذلك ، ففَضَّ المَجلِسَ ، واعتكَفَ مُلازِمًا فِراشَهُ بالقصْرِ لِيجترَّ أحْزانَهُ وآلامَهُ ومَخاوِفَهُ مِنْ هُجوم مُباغِتٍ مِنْ جيْشِ الأعْداءِ ، لا يَعرفُ كَيْفَ يَصُدُّه هَذِهِ المرَّةَ بدون خاتَمِهِ السِّحْريِّ . أمّا أنا فَعُدْتُ إلى بَيْتي أُفكِّرُ فيما جَرى ، وإذْ بذُهولي يَزدادُ عِندَما وَجدْتُ السَّيِّدَ أبا صير واقفًا في انْتِظاري عَلى بابِ البيتِ وهوَ في ملابسِ الصَّيَّادينَ دونَ خَوْفٍ مِن اكْتِشافِ أَمْرِهِ ، وهوَ يُخْبِرُني بأنَهُ جاءَ لأمْرَين : أوَّلُهُما أنَّهُ اصْطادَ كميةً كَبيرةً مِن السَّمكِ الفاخِرِ ، ورَأى أنْ يُهدِيَها إليَّ ردًّا لبَعضِ جَميلي ومَعْروفي معهُ . وثانيهما ،



و هوَ الأهمُّ ، فهوَ أنَّهُ ارتكبَ جريمةً مِنْ حيثُ لا يَشعرُ ، وقدْ ذَهبَ ضحيَّتَها مملوكانِ بريئانِ، ولمْ يحتمِلْ تأنيبَ ضميرِهِ فجاءَني لِيَسْتَشيرَني فيما عَساهُ أَنْ يَصْنَعَ ! وبالطَّبعِ بَلَغَ بيَ الذُّهولُ أَشُدَّهُ لِشُعوري بأشْياءَ غَريبةٍ وغامِضَةٍ ومُثيرةٍ عَلى وَشْكِ أَنْ تَقعَ ، فقلْتُ لهُ دُونَ تفكيرٍ :

« ‹‹ أمَّا هَديّةُ السَّمكِ التي جئتَ بها فقدْ قَبلْتُها وأَشكرُكَ عَليها ، ويَسُرُّني أَنْ تَقْبَلَ دَعْوتي إلى تَناوُلِ الطَّعامِ مَعي . وأمّا الجريمةُ التي ذكرْتَ لي أَنَّكَ ارتكبْتَها وأَنْتَ لا تَشْعُرُ ، فأمْرُها عَجيبٌ ، وأَرْجو أَنْ تَرويَ لي حكايتَها بالتَّفْصيلِ بَعْدَ أَنْ نَدْخُلَ البيتَ وتُغيِّرَ مَلابسَكَ . وثِقْ بأنَّهُ لا خوفَ عليكَ ما دُمْتَ في بَيْتي وحِمايتي . ››»

لمْ يَستطعْ أبو صير أَنْ يَمنعَ نفسَهُ مِن التَّدَخُّلِ بالحديثِ في مُحاولةٍ منهُ لِتجنُّبِ نظراتِ البحّارةِ الجاحِظةِ التي أصابتْهُ بالحرجِ ، فقال :

« دَعْني ، يا حضرةَ الرُّبّانِ أَنْ أَقُصَّها بنَفسي عليهِمْ ؛ لأنَّها أَكبرُ دليلٍ دامغٍ عَلى العدالةِ الإلهيَّةِ التي لا تَغيبُ

أبدًا . ذلك أَنَّني بَعْدَ أَنْ حَمَلْتُ شبكةَ الصَّيدِ ومَشَيْتُ عَلى شاطِئِ البحرِ ، قادَتْني قَدَمايَ إلى المنطقةِ التي أُلْقِيَ فيها بالكيسِ ، وهُناكَ أَلْقَيْتُ شَبَكتي في الماءِ ، وما كِدْتُ أَسْحَبُها بَعْدَ قليلٍ ، حتّى وجَدْتُها وقد امتلأتْ سَمكًا مِنْ أَفْخرِ الأَنْواعِ ، وفيما أنا أُخْرِجُ السَّمكَ مِن الشَّبَكةِ وأضَعُهُ في القُفَّةِ التي أتيتُ بهِ فيها ، وَجَدْتُ شيئًا يَلْمَعُ في فم سمكةٍ كبيرةٍ ، وأخذَتْني الدَّهْشَةُ حينما تحقَّقْتُ أنَّهُ خاتَمٌ ثمينٌ عليهِ نقوشٌ غريبةٌ ، ويَشعُّ مِنْ فَصِّهِ بريقٌ قويٌّ يَأْخُذُ الأبْصارَ ويَخْلُبُ الأَلْبابَ ، فوضَعْتُهُ في إصْبَعي وفي نِيَّتي أنْ أهْدِيَهُ معَ السَّمكِ لِمَنْ أنقذَ حياتي . لكنْ لمْ تَمضِ لحظاتٌ حتّى فوجِئْتُ باثْنَيْنِ مِنْ مماليكِ الوالي وهُما يَهجُمانِ عليَّ ، ويُحاوِلانِ أَخْذَ السَّمكِ الذي مَعي غَصْبًا ، فَمَدْدتُ يَدي التي بها الخاتَمُ لأدْفَعَهُما بَعيدًا ، وما كادَ الشُّعاعُ المنبعثُ مِن فَصِّ الخاتَمِ يَتَّجِهُ إليهما حتّى فُوجِئْتُ بسُقوطِهما جُثَّتَيْنِ هامِدَتَيْنِ . ولَمّا تَحقَّقْتُ مِنْ مَوْتِهما ، خَشيتُ عَلى حَياتي مرةً أُخْرى وأَسْرَعْتُ إلى بيتِ الرُّبّانِ لكيْ أَحْتمِيَ بهِ وأَقُصَّ عليهِ ما حدثَ ، لأَنَّني

لمْ أكُنْ أَعْرِفُ ماذا أَفْعَلُ !»

صَمَتَ أبو صير فإذْ بعيونِ البحَّارةِ تَتَّجهُ إلى الرُّبّانِ الذي استرجَعَ الأحْداثَ المثيرةَ وهوَ يقولُ لهُمْ :

« غَمَرتِ النَّشْوةُ قلبيَ الحزينَ وأنا أُصارِحُه بأنَّ الخاتمَ الذي وَجَدَهُ في فم السَّمكةِ هوَ الخاتمُ السِّحْريُّ الذي كانَ الوالي يتخلَّصُ بهِ مِنْ أعدائِه ، وقدْ سَقَطَ مِنْ يدهِ في البحْرِ ، وشاهَدَ السَّمكةَ وهيَ تتلقَّفُهُ بفمِها وتَمْضي بهِ إلى عُرْضِ البَحْرِ ، فاغْتمَّ لذلكَ غَمّا شديدًا ، واعْتَكَفَ في فِراشِهِ لِشدَّةِ حُزْنه عليهِ ! وبنَفْسٍ بَساطةِ أبي صير وبراءَتِه خلعَ الخاتمَ وأَعْطاني إيّاهُ طالبًا منِّي أنْ أَذْهَبَ بهِ إلى الوالي فَورًا ؛ حتّى لا يَغْتَمَّ أَكْثرَ مِنْ ذَلكَ ، وهوَ الذي حكمَ عليهِ بالموتِ ظُلْمًا ! وسَرعانَ ما تركتُ أبا صير في بَيتي وانْطلقْتُ إلى قَصرِ الوالي ، حيثُ طَلَبْتُ مقابلتَهُ فَورًا لأمرٍ عاجلٍ وخطيرٍ . »

نَظَرَ الرُّبّانُ إلى الشَّمسِ التي تَوارَتْ خلفَ السُّحُبِ الرَّماديَّةِ المتكاثِفَةِ ، في حين هَبَّتْ رياحٌ تُنْذِرُ بعاصفةٍ بَحْريَّةٍ ،

وبدأتِ الأمْواجُ تَتلاطَمُ وتَعْلو قِمَمُها تحتَ السَّفينةِ التي تَأَرْجَحَتْ ومالتْ يَمنَةً ويَسْرةً ، وسَرَتْ قُشَعْريرةٌ ثلجيَّةٌ تحتَ عَباءةِ أبي صير الذي رَضَخَ لأوامرِ الرُّبّانِ بالذَّهابِ إلى القَمْرة والاعتكافِ بها إلى أنْ تَهْدَأَ العاصفةُ بإذْنِ اللهِ .
فَهذهِ أوَّلُ رِحْلةٍ لهُ يُواجِهُ فيها عاصفتيْنِ عاتيتيْنِ ولمْ يَقْطَعْ نِصْفَ المسافةِ بَعْدُ ؛ مما أَوْحَى إليهِ بأنَّ جُثَّةَ أبي قير القابعةَ في القَمْرةِ السُّفْلى قَدْ تكونُ هيَ السَّببَ في هَذا النَّحْس . وعندَما ألحَّ لأبي صير برغبتِه في إلقاءِ جُثَّتِه في البحرِ ، رَجاهُ أبو صير بكلماتٍ طَغى عَليها هديرُ الأمْواجِ :
« كُنْتُ أتمنَّى أَنْ أدْفِنَهُ في بلدِهِ الإسكندريَّةِ ! لكنْ لوْ طالتِ العاصفةُ وهدَّدَتِ السفينةَ بالخطرِ ، فَلْيكُنْ لكَ ما تَشاءُ ؛ فأنتَ الرُّبّانُ والمسئولُ الأوَّلُ والأخيرُ عَن سَلامَتِنا كلِّنا !»

٦

كانَتْ ساعاتٍ عَصيبَةً زَمْجَرتْ فيها العاصِفةُ كَماردٍ خَرجَ مِن القاعِ وقَبَضَ عَلى السَّفينةِ ، التي أصْبحَتْ لُعْبَةً

بينَ يَدَيْهِ . وفَكَّرَ الرُّبّانُ مِرارًا في إلْقاءِ جُثَّةِ أبي قير في البحرِ لعلَّها تَهْدأُ ، لكنَّهُ في كلِّ مرَّةٍ كانَ يَنْوي النُّزولَ إليها معَ بحَّارتِهِ للتَّخَلُّصِ مِنْها ، كانَ حِرْصُهُ عَلى مشاعِرِ أبي صير الْمُرهَفَةِ والنَّبيلةِ ، يَشُدُّهُ بخَيْطٍ مِنْ حَريرٍ . لكنَّهُ في المرَّةِ الأخيرةِ عندَما زادَتْ طَقْطَقَةُ أَلْواحِ السَّفينَةِ عَلى الحدِّ المقبولِ ، كَما لوْ كانَتِ الرِّياحُ والأمْواجُ عَلى وَشْكِ أَنْ تَشْطُرَها نِصْفَيْنِ - أَمَرَ اثنيْنِ مِن بَحّارتِهِ لِلنُّزولِ إلى القَمْرةِ السُّفْلى ، وحَمْلِ جُثَّةِ أبي قير لإلْقائِها مِن السَّفينةِ ، لكنْ سَرعانَ ما هَدَأَتِ العاصِفَةُ ، وسَكَنَتِ الأمْواجُ التي تَوقَّفَتْ عَن ضَرْبِ السَّفينَةِ ولَطْمِها مِنْ كُلِّ جانِبٍ ، وتَفرَّقَتِ السُّحُبُ شَمالاً وجَنوبًا - فَنادى الرُّبّانُ على البحَّارَيْنِ وأمرَهُما بالعَوْدَةِ ، وهُو يَقولُ لِنَفْسِه : « سَأُلْقي بهِ بنفْسي لوْ هَبَّتْ عاصِفةٌ ثالثةٌ !»

خَرجَ أبو صير مِنَ القَمْرةِ التي حَبَسهُ فيها الرُّبّانُ ، وسارَ إليهِمْ وهوَ يَترَنَّحُ لكنَّهُ يُحاوِلُ التَّماسُكَ بقَدْرِ الإمْكانِ ، حتّى بَلَغَ الْمَقْعَدَ الخَشَبيَّ الْمُجاوِرَ لعجلةِ الدَّفَّةِ ، التي تَركَها الرُّبّانُ لِربيعٍ ، وجَلسَ إلى جِوارِ أبي صير وقدِ

احْتَوى كتفَيْهِ بذراعِه اليُسْرى قائِلاً في مَرحٍ ودُعابةٍ :

« أنتَ لا تَقْرَبُ الخَمْرَ فلِماذا تَسْكَرُ من العاصِفةِ ؟ »

ضَحِكَ أبو صير فَسرَتْ مَوْجَةٌ من الارْتِياح داخِلَهُ وقالَ :

« إنِّي أَحْسُدُكمْ ، يا رِجالَ البحْرِ ! فأَنْتُمْ لا تَخافونَهُ برغم بَطْشِه وجَبَروتِهِ ! »

« ذلكَ لأنَّنا نُحِبُّهُ لِدرجةِ العِشْقِ ، وقدْ تَضحكُ لوْ قلتُ لكَ إنَّنا لا نَحْتَمِلُ الحياةَ عَلى اليابسَةِ مدَّةً طويلةً ؛ فالبحرُ لهُ نداءٌ لا يَسْمعُهُ سِوى عُشَّاقِهِ ! »

« لكنَّكَ لمْ تَقُصَّ بَعْدُ عَلى إخْوتِنا البَحّارةِ كيفَ اسْتَطَعْتَ أَنْ تُقابِلَ الوالِيَ برَغمِ الأمْرِ الذي كانَ قَدْ أَصْدَرَهُ بعَدمِ مُقابَلةِ أيِّ أحَدٍ ! فَأَنا في شَوْقٍ كيْ أَقُصَّ عَليهمْ بَعْدَ ذلكَ الجُزْءَ الخاصَّ بي ! »

« ونَحْنُ لا نَقِلُّ عنكَ شَوْقًا ! فأنا عِندَما أَلْحَحْتُ في طَلَبِ الْمُقابلةِ ، تَملَّكَ الوالِيَ القَلَقُ والخَوفُ ، خاصَّةً بَعْدَ ضَياعِ الخاتَمِ السِّحْرِيِّ الذي كانَ يَقْضي بهِ عَلى أعدائِهِ ، ويَبْدو أَنَّ نفسَهُ حَدَّثَتْهُ بِأنَّ إلْحاحي هَكذا لا بُدَّ

أنْ يكونَ لِهجوم وَشيكٍ أوْ هُجوم وَقَعَ مِنَ الْمَجوس عَلى عكَّا - فأذِنَ لي بالدُّخولِ عليهِ . وبِمُجرَّدِ أَنْ وقَفْتُ بينَ يَديْهِ سارَعَ إلى سؤالي :

« ‹‹ ماذا جاءَ بكَ ، أَيُّها الرُّبّانُ ؟ وأَيُّ الأعْداءِ يا تُرى قدْ هَجَمَ عَلى بلادِنا الآنَ ؟ أَ هُمُ الْمَجوسُ ؟››

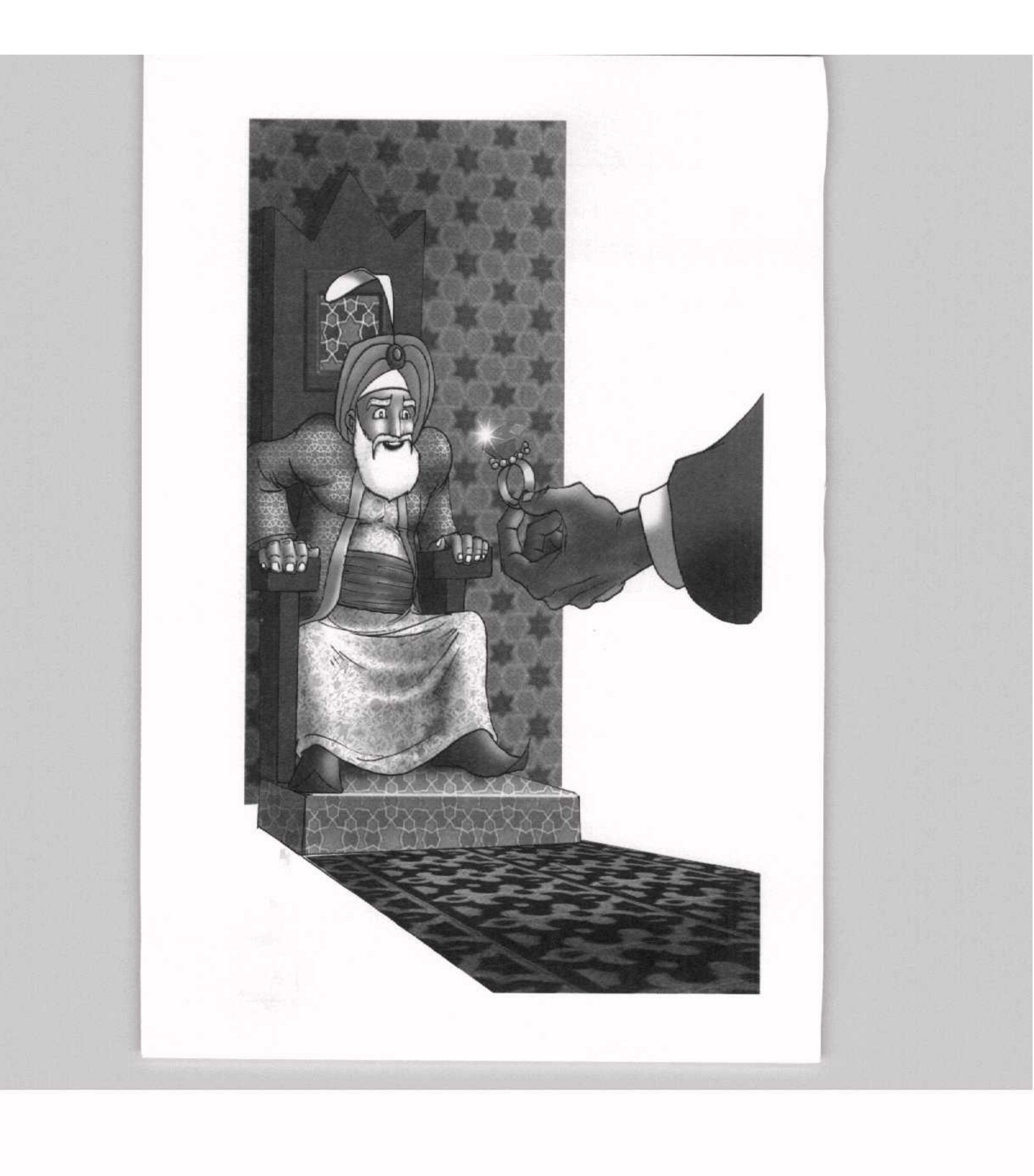
« رَسَمْتُ عَلى وَجْهي ابْتِسامةً سعيدةً وعريضةً حتّى يَطْمَئِنَّ : ‹‹ لمْ يَهجُمْ عَلَيْنا أَحَدًا، يا مَوْلايَ ، ولكنّي أَتَيْتُ بِبُشْرَى عظيمةٍ لا مَثيلَ لَها ، ولا تَخْطِرُ ببالِكَ أَبَدًا !››

« سَأَلني وهوَ حائِرٌ بينَ التَّصديقِ والتَّكذيبِ :

« ‹‹ ما هَذِهِ البُشْرى ؟ لا أَعْتَقِدُ أنَّ شيئًا يمكنُ أَنْ يُسْعِدَني الآنَ بَعْدَ ضَياعِ الخاتَمِ ! ››

« عِندئذٍ أخرجْتُ الخاتمَ السِّحْريَّ مِن جَيبي وقَدَّمْتُه إليهِ قائلاً : ‹‹ هلْ هنُاكَ بُشرى في الوُجودِ أعظمُ مِن استِرْدادِ الخاتَمِ السِّحْريِّ الْمَفقودِ ؟››

« لمْ يُصَدِّقِ الوالي عَيْنَيْه أَوَّلَ الأمْرِ ، وقَفَزَ كَطِفْلٍ وَجَدَ لُعْبَةً جَميلةً ، لكنَّهُ ما لبثَ أَنْ تحقَّقَ رُجوعَ الخاتَمِ



إليهِ ، و وجودَهُ في يَديْه ، فكادَتِ الدَّهْشَةُ تَطيرُ بعَقْلهِ مِنْ رَأْسِهِ ، وظَلَّ يَنظُرُ إلى الخاتَم مَرَّةً وإلَيَّ مرَّةً ، وهوَ يَضْحَكُ ويَبْكي في وَقْتٍ واحدٍ . ولم يَزَلْ كَذلكَ وَقْتًا غيرَ قَصير . وعِنْدَما اسْتَوْعَبَ الموْقِفَ هَجَمَ عليَّ وعانَقَني قائلاً : ‹‹ لوْ أَنَّني أَعْطيْتُكَ نِصْفَ الولايةِ مُكافأةً لكَ على إعادَةِ هَذا الخاتَم ما وفَّيْتُكَ حَقَّكَ ! ولكنْ أَخْبِرْني كيفَ تمكَّنْتَ مِن اسْتِرْدادِهِ ، وقَدْ رأيْتُ بعَيْنيَّ تلكَ السَّمكَةَ التي ابْتَلَعَتْهُ وهَرَبَتْ به إلى عُرْضِ البحرِ ؟!››

« قَصَصْتُ عَلى الوالي قِصَّةَ السَّيِّد أبي صير كالسَّيْلِ الْمُنْهمِرِ مِنْ مَنْبَعِهِ إلى مَصَبِّهِ ، ولمْ يَفُتْني أَنْ أُصارحَهُ قائلاً :

« ‹‹ لوْلا أنَّهُ رَجُلٌ طَيِّبٌ مَظلومٌ ، ما كتبَ اللهُ خلاصَهُ مِن القَتْلِ عَلى يديَّ حَرْقًا وغَرَقًا . ولو أنَّهُ كانَ خائنًا لمولايَ لأَبْقَى الخاتَمَ السِّحريَّ لِنفسِهِ بَعْدَ عُثورِهِ عَليهِ في فَم تِلكَ السَّمكةِ التي اصْطادَها ؛ إذْ إنَّهُ بواسطةِ هَذا الخاتَم كانَ يَستَطيعُ أَنْ يَقْتُلَ كُلَّ مَنْ يُريدُ قَتْلَهُ في لحظةٍ واحدةٍ ، كَما حَدثَ معَ المملوكَيْنِ اللَّذيْنِ حاوَلا اغْتصابَ السَّمكِ مِنْهُ ! لَمْ أَرَ إنْسانًا مِثْلَهُ في صِدْقِه وإخْلاصِهِ

وبراءَتِهِ ونَقائِهِ !››

« قاوَمَ الوالي ذُهولَهُ وتَماسَكَ لِيَصيحَ آمِرًا بإِحضارِ السَّيِّدِ أبي صير عَلى الفَوْرِ مِنْ بَيْتي !»

تَذَكَّرَ أبو صير اللَّحظاتِ العَصيبةَ التي عاشَها ، وقالَ ضاحِكًا : « عِندَما رأَيْتُ جنودَ الوالي يَقْتَحِمونَ بَيْتَ الرُّبَّانِ لاقْتِيادي إلى قَصْرِ الوالي ، أَصابَني هَلَعٌ لا يَقِلُّ عَنْ ذلكَ الذي أصابَني يومَ حُكِمَ عَلَيَّ بالحرْقِ والغَرَقِ . كانَتْ مُفاجَأَةً كالصَّاعِقَةِ ؛ إذْ ظَنَنْتُ أَنَّ الوالِيَ يَنْوي تَنْفيذَ حُكمِهِ عليَّ بالقَتْلِ حَرْقًا وغَرَقًا مرَّةً أخْرى ، بلْ كانَتِ الْمُصيبةُ هَذهِ المرَّةَ مصيبتَيْنِ ؛ إذْ حَسِبْتُ أنَّ الوالِيَ قَدْ أمَرَ أَيْضًا بقَتْلِ الرُّبَّانِ لِعدَمِ تنفيذِهِ ذَلكَ الحُكْمَ وخِداعِهِ لهُ بتَهْريبي بَعيدًا عنِ الأعْيُنِ . وكانَ جَزَعي عَليهِ أكثرَ مِنْ جَزعي عَلى نَفْسي ؛ إذْ لا يُعقَلُ أنْ يكونَ قَتْلُهُ جَزاءً عَلى إنْقاذِه لحياتي .

« كانتْ أفكارًا مَحْمومةً تَنهالُ عَلى رَأْسي وكَأَنَّها حُمَمٌ بُركانِيَّةٌ ، ولَمْ يُلطِّفْ مِنْها وأنا مُنطلِقٌ عَلى جَوادي وَسَط جيادِ الجنودِ الْمُحيطينَ بي سِوى إدْراكي الْمُفاجِئ لعدَمِ



وُجودِ القيودِ الحديديَّةِ في يَديَّ ، كَما حدثَ لي عِنْدَ القبْضِ عليَّ في المرَّةِ السّابقةِ ، وكذلكَ إيماني الذي لا يتزعْزَعُ برحمةِ اللهِ ، والذي تَجسَّدَ أمامي عِنْدَما أَدْخلوني على الوالي ؛ وإذْ بي أَجِدُهُ جالِسًا يَضْحَكُ مَعهُ والبِشْرُ يَعلو



جميعَ الوجوهِ .

« وانْقلَبَ ذُهولُ الرُّعْبِ داخلي إلى ذُهولِ النَّشْوةِ ، وذَلِكَ عِنْدَما نَهضَ الوالي واسْتَقْبلني بِالعِناقِ والتَّرحيبِ قائلاً لي في حُبٍّ غامرٍ :

« ‹‹ لا تُؤاخِذْنا ، أيُّها الرَّجلُ الطَّيِّبُ ، على ما فَعَلْناهُ مَعكَ ، فلوْ أنَّكَ كُنْتَ خائنًا ما رَدَدْتَ إلينا الخاتَمَ السِّحْريَّ الذي يُساوي في حَدِّ ذاتِهِ عِدَّةَ ممالِكَ ! كَما أنَّ عَدالةَ اللهِ – سُبْحانه وتَعالى – أَرْسَلَتْ إليكَ هذا الرُّبَّانَ الشَّهْمَ كَيْ تَرْفعَ عنكَ ظُلْمَ البَشَرِ !››

« وانْقشَعَتِ الغُمَّةُ ، وتَلاشى الكَرْبُ ، وبَسَطَ الفَرَجُ أَجْنِحتَهُ الحانِيَةَ ، وتجلَّتِ الرَّحْمةُ الإلهيَّةُ لِتنزلَ عَلى قَلْبي بَرْدًا وسَلامًا ، ورَفعتِ العدالةُ الإلهيَّةُ ميزانَها ، فَأَرْسَلَ الوالي بعضَ أعوانِهِ ليُحْضِروا أبا قيرٍ مَقْبوضًا عَليهِ . وأَثْبَتَ التَّحْقيقُ مَعَهُ أَنَّهُ كانَ كاذِبًا في كُلِّ ما ادَّعاهُ عليَّ ، كَما شَهِدَ بَوّابُ الخانِ الذي نَزَلْنا بهِ عندَ وُصولِنا إلى عكَّا بسرقتهِ لي وهُروبهِ مِنّي .

« أَمَّا عُمَّالُ الْمَصْبغةِ الذينَ انْتَهَزوا الفُرصَةَ فقدْ فَضَحوا مَخازِيَهُ وبَطْشَهُ بكُلِّ مَنْ يُحاوِلُ مُطالَبَتَهُ برَفْعِ الأجْرِ ، وخاصَّةً عِنْدَما قارَنوا أُجورَهُمْ بالأُجورِ التي يَحْصُلُ عَليها عُمَّالُ الحمّامِ عِنْدي ، لِدرجةِ أَنَّهُ أقْسَمَ لَهُمْ أَنَّ

بَطْشَهُ سيَمْتَدُّ لِيَشْمَلَ صاحِبَ الحمَّام وعُمَّالَهُ ، لأنَّهُ لم يُخْلَقْ بَعْدُ الذي يَتَسَبَّبُ في تَعكيرِ صَفْوِ حياتِهِ ، وسَيَرَوْنَ العَجبَ العُجابَ في القَريبِ العاجِلِ .

« وعِنْدما تَمَّ القبضُ عليَّ وصَدَرَ الحُكمُ بقتلي حَرْقًا وغَرَقًا ، وتَصَوَّرَ أَنَّهُ نُفِّذَ فِيَّ بالفِعْلِ ؛ أكَّدَ لهُمْ أنَّ مِلْكِيَّةَ الحمّام سَتَئُولُ إليهِ كَهديَّةٍ مِن الوالي الذي يُحِبُّهُ كَأخيهِ ، ولنْ تَكونَ هُناكَ عندئذٍ فَوارِقُ في الأُجور بينَ عُمَّالِ المصْبغةِ وعُمَّالِ الحمَّام ، وأَيُّ رأسٍ يُحاوِلُ أَنْ يَرتفعَ أَعْلى مِن الآخَرينَ سَيَطيرُ في لَمْحِ البَصَرِ .

« أَمَّا عُمَّالُ الحمَّام فَقَدْ شَهِدوا بأَنَّهُمْ استَمَعوا إلى نَصيحتِهِ التي أسْداها إِلَيَّ بصُنْعِ الدِّهانِ الذي ادَّعى بَعْدَ ذلكَ لِلْوالي أَنَّه سُمٌّ قَصَدَ بهِ قَتْلَهُ معَ كُلِّ كُبَراءِ دَوْلَتِه ! والذي أثْبَتَتْ تَجْربتُهُ أنهُ خالٍ تمامًا ممّا يَضُرُّ الجِسْمَ ، بلْ نَجحَ تمامًا في إزالةِ كُلِّ آثارِ الهَرْشِ والحِكَّةِ ، والقَضاءِ عَلى المرضِ الذي عانى مِنْهُ النّاسُ طويلاً ! »

صَمَتَ أبو صير لِيَلْتقِطَ أنفاسَهُ الْمَبْهورَةَ ، كأَنَّهُ كانَ

يَعيشُ الأحْداثَ ولا يَرْويها لِلْبحَّارةِ الذينَ خَيَّمَ الصَّمْتُ والذُّهولُ عَلَيْهِمْ. عِندئذٍ الْتقطَ الرُّبّانُ الخيطَ مِنْهُ قائلاً :

« ولا بُدَّ أَنَّ دَهْشَتَكُمْ سَتَزْدادُ عِندَما تَعْلمونَ أنَّ الدُّموعَ انْهمرَتْ مِنْ عَيْنَي السَّيِّدِ أبي صير حُزنًا على زميلِهِ الخائِنِ الحَقودِ ، عِندَما أَمَرَ الوالي بقَتْلِ أبي قير بالطَّريقَةِ التي كانَ أبو صير سَيُقْتَلُ بها ، والتي اقْتَرحَها هُوَ بنفسه مِن قَبْلُ عَلى الوالي ، على أنْ يُطافَ بهِ في أنْحاءِ المدينةِ جالسًا عَلى بَغلٍ بالْمَقلوبِ لِفُرجَةِ النَّاسِ عَليهِ وفَضيحتهِ بَينهُمْ . إنَّ السيِّدَ أبا صير لمْ يَكتفِ بذَرْفِ الدُّموعِ حُزْنًا عَلى زَميلِهِ ، بلْ قالَ لِلْوالي :

« ‹‹ إنَّني سامَحْتُهُ ، يا مَوْلايَ ! إنَّ اللهَ غَفورٌ رَحيمٌ !››

« لكنَّ الواليَ أجابَهُ بمُنْتَهى الحَسْمِ والتَّصْميمِ :

« ‹‹ لكنِّي لا يمكِنُ أَنْ أُسامحَ أمْثالَهُ ، ولا بُدَّ مِنْ إنْزالِ هَذا العِقابِ بهِ لِيكونَ عِبْرةً لِسواهُ . فأَنا مَسئولٌ عَنْ كلِّ الرَّعايا في وِلايَتي ، ولَسْتُ مَسْئُولاً عَنْ نَفْسي فَحَسْبُ ؛ فَهُناكَ فَرْقٌ بينَ رَغْبتِكَ الرَّحيمةِ ومَسْئُوليَّتي الجَسيمةِ !››

« وسَرْعانَ ما صُودِرَتْ مُمْتَلكاتُ أبي قير وأَمْوالُه كُلُّها ، وأُضيفَتْ إلى مُمْتَلكاتِ السَّيِّدِ أبي صير ، بلْ إنَّ الواليَ أرادَ أَنْ يُكافِئَهُ بَعْدَ هَذا بجَعْلِه وَزيرًا أكْبَرَ عِنْدَهُ ، لكنَّهُ شَكَرهُ وأَبْدى رَغْبَتَهُ في العَوْدةِ إلى الإسكندريَّةِ لِيَقْضِيَ ما بَقِيَ مِن حَياتِه بينَ أهلِه ومَعارِفِه ! »

بَدتْ مَشارِفُ مدينةِ يافا عِنْدَ خَطِّ الأفُقِ ، فعادَ الرُّبّانُ لإدارةِ عَجلةِ الدَّفَّةِ ، في حينَ هُرِعَ ربيعٌ معَ زُملائِه لِطَيِّ الشِّراعِ الكَبيرِ ، وتَوْجيهِ الشِّراعَيْنِ الصَّغيرَيْنِ صَوْبَ الميناءِ ، وهوَ يَقولُ لِزَميلٍ قَريبٍ مِنْهُ :

« لمْ نَشْعُرْ بالرِّحْلةِ مِنْ عكّا إلى يافا ! كانَ قَصصُ السَّيِّدِ أبي صير مُتْعةً لا حُدودَ لَها برغْمِ العاصِفَتَيْنِ اللَّتَيْنِ مَرَرْنا بهما ! وها هو قَصَصُهُ عَلى وَشْكِ الانْتِهاءِ ، ولا تَزالُ أمامَنا أُسدودُ والمجَدَّل وغزَّة والعريش ودُمياط قبلَ أَنْ نَصِلَ إلى الإسكندريَّةِ ! »

قَبْلَ أنْ يَصْعَدَ البحّارُ عَلى الصّاري لِطَيِّ الشِّراعِ مِنْ أعْلى ، قالَ لِربيعٍ باسِمًا :

« العِبَرُ والدُّروسُ مِن هذا القَصَصِ ، يَكْفينا تَأَمُّلُها والتَّفكيرُ فيها العُمْرَ كُلَّهُ !»

٧

سارَ أبو صير سَعيدًا بصُحْبَةِ الرُّبّانِ خليفةَ في دُروبِ يافا وأَزِقَّتِها ، ومعَ ذلكَ كانَ يَشْعُرُ بالحنينِ القاتِلِ للإسكندريَّةِ كُلَّما اقْتَربَ مِنْها . وقرأَ الرُّبّانُ اللمّاحُ ما يَدورُ داخِلَهُ فلمْ يُطِلْ مِنْ رُسُوِّهِ بالميناءِ ، بلِ اكْتَفى بتَموينِ السَّفينَةِ بالماءِ العَذْبِ والبُرتقالِ اليافاويِّ الشَّهيرِ . وفي صباحِ اليومِ التّالي كانَتِ السَّفينةُ تَنْشُرُ أَشْرِعَتَها لِتَنْطَلِقَ إلى عُرْضِ البَحْرِ في طَريقِها إلى أُسْدُودَ والمجدَّلِ ، ولَنْ تَتوقَّفَ بَعْدَ ذَلِكَ إلا في العَريشِ ثمَّ دمياطَ والإسكندريَّةِ .

كانَتِ الرِّياحُ قويَّةً لكنَّها حانِيةٌ في الوقتِ نَفْسِه ، فانْدَفَعتِ السَّفينَةُ كسَهْمٍ يَشُقُّ عُبابَ المياهِ الزَّرْقاءِ التي تَشِفُّ عَنْ بَعْضِ الأسْماكِ تحتَها . تَركَ الرُّبّانُ العجلةَ لِربيعٍ وجَلسَ إلى جوارِ أبي صير قائلاً لهُ بتأثُّرٍ واضِحٍ :

« تعلَّقْنا بكَ لِدرجةِ أنَّهُ يَعِزُّ عَلينا أَنْ نَتْرُكَكَ في الإسكندريَّةِ ونعودَ بدونِكَ ! سَنُعاني مِنْ وَحْشَةٍ كبيرةٍ ! »

« أ لَنْ تَعودَ إلى الإسكندريَّةِ بينَ حينٍ وحينٍ ؟ »

« لَسْتُ أدْري . . فأنْتَ تعرفُ أنَّهُ مُنْذُ آخِرِ رحلةٍ لي معكَ مِن الإسكندريَّةِ إلى عكَّا ، عَيَّنَني الوالي رئيسًا لِلْبحْريَّةِ وقائدًا للأسْطولِ ، فتركْتُ البحريَّةَ التِّجارِيَّةَ مِن ذلكَ الحينِ ! »

هَزَّ أبو صير رأسَهُ مُؤمِّنًا عَلى كَلامِه وقالَ :

« أَعْلَمُ عِلْمَ اليَقينِ أنَّ الوالِيَ شَرَّفَني بكَ قائدًا شَخْصيًّا لِهذهِ السَّفينةِ ، وهوَ فَضْلٌ لنْ أَنْساهُ ما حَيِيتُ سواءٌ لكَ أَوْ لَهُ ! »

« كانَ الوالي يتَمنَّى أَنْ تَظلَّ مَعنا في عكَّا ، لكنَّهُ احْتَرَمَ حنينَكَ إلى وَطَنِكَ ! »

« يَكْفيني شَرَفًا أنَّهُ أَمَرَ بإعْطائي ثَمنَ مُمْتَلكاتي كُلِّها ، وأعادَني إلى بَلَدي عَلى هَذهِ السَّفينةِ الكبيرةِ الْمَشْحونَةِ بكلِّ الخَيراتِ ، كَما لا أَنْسى أبدًا خُروجَهُ بنَفْسِه هوَ وكِبارُ

رجالِ دَوْلته لِتَوْديعي حتّى أَقْلَعَتْ بنا السَّفينةُ !»

« لكنَّني حتّى الآنَ لمْ أَستَطعْ أَنْ أدْركَ سِرَّ تَسامُحكَ معَ أبي قير بلا حُدودٍ ، ثُمَّ إصْرارِكَ عَلى اصْطِحابِ جُثَّته مَعنا حَتَّى تَدْفِنَهُ في الإسكندريَّة مُعزَّزًا مُكرَّمًا !»

« الموضوعُ برُمَّته لَيْسَ فيهِ سِرٌّ عَلى الإطْلاقِ ! لقدْ رَبَّياني أَبوايَ عَلى مُقابَلَةِ الإساءَةِ بالإحسانِ ، والشَّرِّ بالخيرِ . قَدْ يَبْدو الخيرُ ضَعيفًا والشَّرُّ قويًا في بعضِ الأحْيانِ ، لكنَّها مَظاهِرُ خادِعَةٌ ، لأنَّ الغَلَبَةَ في النِّهايةِ لِلْخَيرِ والحقِّ والعَدالةِ الإلهيَّة . فقدْ تَعلَّمْتُ أَنَّ الشَّرَّ نارٌ تَأكُلُ صاحِبَها في النِّهايةِ ، خاصَّةً إذا لمْ تَجدْ ما تَأْكُلُهُ !

ومعَ كُلِّ الذي فَعَلَهُ أبو قير ضِدِّي فَسَيظلُّ جُزْءًا لا يَتَجزَّأُ مِن حَياتي ، ودَرْسًا لا يمكِنُ أَنْ أَنْساهُ ، ولِذلكَ سَعِدْتُ عِندَما وَجَدْتُ جُثَّتَهُ طافِيةً عَلى وَجْهِ المِياهِ بالقُرْبِ مِنَ السَّفينَةِ ؛ إذْ قَرَّرْتُ أَنْ أَبْنِيَ لهُ مَقْبرةً عَليها قُبَّةٌ كبيرةٌ عَلى شاطِئِ الإسكندريَّةِ ، وإلى جوارِها مَزارٌ كبيرٌ ومَضْيَفَةٌ لِلْغُرَباءِ سأُوقِفُ عَليها عِدَّةَ أوقافٍ ، وسأَكْتُبُ

عَلى جُدرانِ القُبَّةِ :

المرءُ يُعْرَفُ في الأنامِ بفِعْلِـــهِ
وفَعائِلُ الحُرِّ الكَريمِ كعَقْلِـــهِ
فتَجَنَّبِ الفَحْشاءَ لا تَنْطِقْ بها
سِيّانِ في جِدِّ الكَلامِ وهَزْلِـــهِ
في الجَوِّ مَكْتوبٌ عَلى صُحُفِ الهَوا
مَنْ يَفْعَلِ الْمَعروفَ يُجْزَ بِمِثْلِهِ
إيَّاكَ تَطْلُبُ سُكَّرًا مِنْ حَنْظَلٍ
فالشَّيْءُ يَرْجِعُ في الْمَذاقِ لأَصْلِهِ

« وعِندَما أتَزوَّجُ وأُنجِبُ – بإذنِ اللهِ – سأُوصي ابني بِأَنْ يَدْفِنَني إلى جوارِهِ !»

ضَحِكَ الرُّبّانُ مُحاوِلاً تَغْييرَ مَجْرى الحديثِ :

« الآنَ عَرَفْتُ السِّرَّ في إصْرارِكَ عَلى العَودةِ إلى الإسكندريَّةِ – أنتَ تُريدُ الزَّاوجَ مِن بَناتِ بَلدِكَ !»

شارَكَهُ أبو صير ضَحِكاتِهِ المرِحَةَ وأجابَ :

« هذا صحيحٌ ! كُنْتُ قدْ قرَّرْتُ ألا أتَزوَّجَ قبلَ أَنْ يكونَ

لديَّ ما يُساعِدُني عَلى حياةٍ زَوْجيَّةٍ مُريحةٍ . لَمْ أُحِبَّ أَنْ تُعاني زَوْجتي ما عانَيْتُهُ أنا مِنْ قَبْلُ . »

« أنتَ بطبيعتِكَ تُحِبُّ أنْ تكونَ مَصْدرًا لِسعادةِ كُلِّ مَنْ حَولَكَ ! وهَذِه في حدِّ ذاتِها أعظمُ سَعادةٍ يمكِنُ أنْ يَحصُلَ عَليها الإنسانُ !»

وتَواصَلتِ الرِّحلةُ بينَ الرُّسُوِّ في العريشِ ثمَّ دمياطَ دونَ عواصِفَ أو تَقَلُّباتٍ . وكلَّما اقْتَرَبتِ السَّفينةُ مِن الإسكندريَّةِ كانَتِ الشَّمسُ تَزْدادُ تألُّقًا وسُطوعًا ، وفي اللَّيالي يُرسِلُ القمرُ أشِعَّتَهُ الفِضِّيَّةَ لِتَطْفُوَ السَّفينةُ في جوٍّ كالحُلْم ، في حينَ تَبادلَ الرِّفاقُ أحاديثَ ذاتَ شُجونٍ ، دارَ مُعظَمُها حولَ الأحداثِ التي مرَّ بها أبو صير والرُّبّانُ ، واستَخْرَجوا مِنها الدُّروسَ والعِبَرَ حتّى ظَهَرَ فَنارُ الإسكندريَّةِ شامِخًا في كَبِدِ السَّماءِ ، ومُختَرِقًا لِقَلبِ الشَّمسِ ، ومُتألِّقًا في وَهَجِها ، فأشْرَقَ وَجْهُ أبي صير قائلاً لِلرُّبّانِ :

« أدْرَكْتُ الآنَ أنَّ لَديَّ سِرًّا لا بدَّ أَنْ أَبوحَ لَكَ بِهِ !»

ابْتَسَمَ الرُّبَّانُ مُتَسائِلاً :

« إذًا . . كانَ عِندي حَقٌّ عِندَما اسْتَفْسَرْتُ مِنكَ عَنْ هَذا السِّرِّ ! »

ومَضَ في عَيْنَيْ أبي صير ما يُشْبِهُ شَقاوَةَ الأطْفالِ وهو يَقولُ :

« في نِهايةِ هَذهِ الرِّحلةِ تأكَّدْتُ أَنَّني أَمْلِكُ أيضًا خاتَمًا سِحْرِيًا ! »

« وهلْ وَجَدْتَهُ في فَمِ السَّمكةِ نَفْسِها ؟ »

« خاتَمي السِّحْرِيُّ لا يَراهُ إلا مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ! »

« أ هَذا لُغْزٌ ؟ »

« لَيْسَ لُغْزًا عَلى الإطْلاقِ . خاتَمي السِّحْرِيُّ هوَ فِعْلُ الخَيْرِ ! »

قالَ الرُّبَّانُ وقَدْ أَشْرَقَ وَجْهُهُ تحتَ وَهَجِ الشَّمْسِ :

« لا يَعْلَمُ مَوْلانا الوالي أنَّهُ لمْ يَعُدِ الإنسانَ الوحيدَ الذي يَملكُ خاتَمًا سِحْرِيًا ! وما الفرقُ بينَ الخاتَمينِ ؟ »

« خاتَمُ الوالي مَرْصودٌ لِلْقتلِ ، أمّا خاتَمي فمَرْصودٌ لِلْحياةِ !»

وَمَضَتْ في عَيْني الرُّبّانِ نَظراتُ الإعْجاب والحُبِّ والتَّقْدير لِهَذا الإنْسانِ البَديع ، الذي يُؤكِّدُ بفِكْرِهِ وسُلوكِهِ لِكلِّ مَنْ عَرَفَهُ أنَّ الدُّنيا لا تَزالُ بخَيرٍ وستَظلُّ بخَيرٍ ما دامَ أمثالُهُ يَسيرونَ على الأرْضِ بينَ عِبادِ اللهِ .

خَفَقَ قلبُ أبي صير ومَشارفُ الإسكندريَّة تتألَّقُ بمَبانيها الإغريقيَّةِ والرُّومانيَّةِ والقِبْطيَّةِ والإسْلاميَّةِ ، وتَتَّضحُ معالِمُها كُلَّما اقتربَتِ السَّفينَةُ مِنْ شاطِئها ، في حينَ انْهمَكَ الرُّبّانُ خليفةُ في تَوْجيهِها إلى مَمرٍّ مَفْتوحٍ بينَ عَشَراتِ السُّفُنِ الضَّخْمةِ والعِمْلاقَةِ ، التي أَلْقَتْ مَراسِيَها بالقُرْبِ مِن الكُتَلِ الحجرِيَّةِ التي رَصَّعَتْ ميناءَ حاضِرَةِ الدُّنْيا .